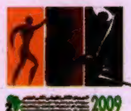
إيمي سيزير

مأساة الملك كريستوف

ترجمة: د/ أحمد منور

مكتبة نوميديا



وزارة الثقافة
الجزائر
Ministère de la Culture. Algerie

إيمي سيزير

AIME CESAIRE



مأساة الملك كريستوف

LA TRAGEDIE DU ROI CHRISTOPHE

ترجمة د/ أحمد منوّر

صدر هذا الكتاب

بدعم من وزارة الثقافة

في إطار المهرجان الثقافي الافريقي الثاني

الجزائر - 2009

العنوان: مأساة الملك كريستوف

المؤلف: أيمي سيزير

ترجمة: أحمد منور

الإخراج التقني والفني: دار الساحل.

تصميم: ل. الطيب

الايداع القانوني: 2044 - 2009

ردمك: 978 - 9961 - 9785 - 8 - 0

تعاونية عقارية 17 أكتوبر 61 عيسى مصطفى الرغاية - الجزائر - 2009.

الهاتف والفاكس: 66 -93-85-021

دار الساحل

تقديم، بقلم المترجم

يعد إيمي سيزير ـ وقد دالت دولة الشعر في فرنسا اليوم، وتراجعت في الكثير من البلاد الأوروبية ـ أحد كبار شعراء اللغة الفرنسية. أصدر حوالي عشرة دواوين شعرية، منها: "دفتر العودة إلى مسقط الرأس" و"الأسلحة المُعجِزة" و"أغلال" و"شمس مقطوعة العنق"، كما نشر أربع مسرحيات، هي على التوالي "وتصمت الكلاب" (1956)، و"مأساة الملك كريستوف" (1964)، و"موسم في الكونغو" (1967)، و"عاصفة" (1969) .

لم يكن ديوانه الأول "دفتر العودة إلى مسقط الرأس"، الذي صدر سنة 1939، يعبر عن فرحة الشاعر برجوعه من باريس إلى الأرض التي رأى فيها النور أول مرة وحسب، ولكنه كان يعبر، وعلى الأخص، عن رجوعه المعنوي إلى ذاته يسائلها، وإلى التاريخ يستنطقه، ويعيد قراءته من جديد، ويستخلص

منه العبر وفق فلسفة جديدة، أو لنقل وفق مفهوم جديد في الحياة، مستوحى من كونه "زنجيا"، بالمعنى الذي كوّنه عن مفهوم "الزنوجة" (La négritude) وهو طالب في باريس، وكان هذا المفهوم قد ظهر في شكل حركة أدبية وثقافية في بداية الثلاثينيات بباريس، وكان هو، إلى جانب زميله وصديقه الشاعر السنكالي "ليوبولد سيدار سنكور"، و"لوي جورج داماس"، وهو أقل شهرة منهما، من أنشط الطلبة الزنوج في تلك الحركة، ومن أشدهم حماسا لها، وترويجا لفلسفتها، تشهد على ذلك كتاباتهم في جريدة "الطالب الأسود"، في بداية الأمر، ثم كتاباتهم الشعرية والنثرية التي جاءت بعد ذلك.

ككل فكرة جديدة لم تكن فكرة "الزنوجة" واضحة في البداية، ولا الآراء متفقة حولها، فكانت تتراوح بين ردود الفعل الآنية إزاء ما يتعرض له السود بصفة متفرقة وفردية في حياتهم اليومية، من كلام جارح، أو تصرفات عنصرية - لاسيما

في مجتمعات غير مجتمعاتهم الأصلية مثل المجتمعات الأوروبية- وبين النظرة المتأملة، المستنيرة، التي كانت تهدف أولا وقبل كل شيء إلى إعادة الثقة للإنسان الأسود بنفسه وبقدرته على العطاء الحضاري، وعلى الخلق والإبداع الثقافي والفني، على قدم المساواة مع الأجناس البشرية الأخرى، ثم إلى تنبيه الضمير الإنساني بعد ذلك وتحسيسه بما لحق الإنسان الأسود من اضطهاد وظلم وعبودية عبر التاريخ الإنساني الطويل، ومن ثَمّة، إعادة الاعتبار له، وتصحيح النظرة الخاطئة التي تشكلت عنه لدى الإنسان الأبيض بالخصوص، وإعادة تقييم الثقافة والحضارة الزنجية، التي عانت بدورها من الأحكام المسبقة، والتصورات الخاطئة، ومن كل أنواع التحيز والازدراء. وقد كان إيمي سيزير من أصحاب هذه النظرة الأخيرة، التي تحاول أن تفلسف المسألة، وتتجاوز مفهوم "الزنوجة" من مجرد وعي الإنسان الأسود بوضعه، لتكون أسلوب حياة، وطريقا لفهم

الكون والوجود.

وقد ساعده على بلورة هذه النظرة وتطويرها، حصول العديد من البلدان الإفريقية في بداية الستينيات من القرن الماضي على استقلالها الوطني، وبروز مشاكل جديدة هي مشاكل ما بعد الاستقلال، وهي مشاكل حيوية وخطيرة، تتعلق بمصير ومستقبل شعوب تلك البلدان، فحاول سيزير أن يعبر عن تلك المشاكل في أعماله الأدبية العديدة بوجه عام، وفي "مأساة الملك كريستوف" على وجه الخصوص، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك، ولخص مرامي مأساته بقوله: ((إن الملك كريستوف يجسد "الزنوجة" في مواجهة ثلاث مشكلات: مشكلة ميتافيزيقية تتعلق بالجنس في حد ذاته، ومشكلة إنسانية هي مشكلة انسجام شعب دولة فتية، ومشكلة الانتقال من حالة التبعية إلى الاستقلال والمسؤولية))[1].

ولئن كان سيزير مارتينيكي الأصل، ينتمي جغرافيا إلى ما يسمى بالعالم الجديد، فإن شعوره بالانتماء إلى إفريقيا هو الذي ملك عليه قلبه، واستحوذ على مشاعره، لأن إفريقيا هي قبل كل شيء مهد الإنسان الأسود، ورمز وجوده حيث ما كان، ولكن إفريقيا قبل ذلك وبعده، هي أرض الأجداد، الذين اقتلعوا من جذورهم، ونقلوا قسرا إلى أمريكا، وأهدرت كرامتهم الإنسانية، وبيعوا عبيدا في سوق النخاسة، فهي إذن الوطن الثاني بالنسبة إليه، والوطن الأصلي المشترك لكل السود في العالم. ولذلك فهو حين يكتب عن هايتي، على سبيل المثال، فإنه يضع إفريقيا نصب عينيه، فهما في نظره شيء واحد. نجده يعبر عن هذه الحقيقة على لسان كريستوف فيقول: ((إفريقيا أيتها البائسة، أردت أن أقول هايتي أيتها البائسة، مع العلم أنهما الشيء نفسه))[2].

[1] (Footnotes) حوار مع الكاتب أجراه جورج دو بروفيل، وأورده م. أمر. تكال. في مؤلفه "إيمي سيزير، رجل يبحث عن وطن". المطبوعات الإفريقية الجديدة. داكار/أبيدجان. 1975.

[2] مأساة الملك كريستوف. الفصل الأول، المشهد السادس.

لهذا كله احتلت إفريقيا مكان الصدارة في أدبه، وشكلت قطب الرحى في كل كتاباته، لاسيما في مسرحياته، فكتب "عاصفة" يحاور بها شكسبير، ويعارض مسرحيته "العاصفة"، و"يصحح" تلك الصورة المنفّرة - حسب استنتاجه - التي أعطاها الشاعر الإنكليزي الأشهر لشخصية "كاليبان"، ليجعل من هذه الشخصية رمزا للإباء الإفريقي، ونموذجا مثاليا لرفض العبودية ومقاومة الاستعمار. وكتب "موسم في الكونغو"، ليعيد فيها إلى الأذهان بعضا من تلك الأحداث المأساوية التي جرت في هذا البلد الإفريقي "الكونغو"، غداة استقلاله، وراح ضحيتها الزعيم الوطني "باتريس لومومبا"، الذي لا يخفي المؤلف إعجابه الكبير به، وأسفه على فقده، ويحذر من أخطار تلك الانقسامات والحروب الداخلية التي أصبحت تترصد العديد من بلدان إفريقيا، وتهدد بشكل جدي حريتها واستقلالها.

وتنحو "مأساة الملك كريستوف" هذا المنحى، وتتناول

مشكلات إفريقيا الكبرى، حتى وإن كانت أحداثها تجري في جزيرة "هايتي" بأمريكا الوسطى، في بداية القرن التاسع عشر، إذ كل الدلائل فيها تشير إلى أن المؤلف لم يكتبها إلا لإفريقيا ومن أجلها، فهو يسقط بشكل واضح ومقصود تلك الأحداث التاريخية على بلدان إفريقيا المستقلة حديثا، ويعالج مشاكلها الآنية، وخاصة مشكلة التخلف والتنمية، ومسألة الحفاظ على الاستقلال الوطني ووحدة الأمة، ومسألة الحرية والديمقراطية ونظام الحكم بوجه عام، ويحاول في هذا الصدد أن يبصّر بعواقب الدكتاتورية التي قد ينزلق فيها حكام إفريقيا الجدد، حين يفرضون الوصاية على شعوبهم، ويحكمونها بقبضة من حديد، باسم الوطنية والمصلحة العليا للوطن، وهو ما فعله كريستوف، حين فرض نفسه باسم هذه الشعارات ملكا على الشعب الهايتي، وجره إلى حرب أهلية

دامية، وأرهقه بأعمال سخرة لا طائل من ورائها[3].

تعرِضُ "مأساة الملك كريستوف" أحداثا حقيقية وقعت في جزيرة هايتي، كُبرى جزر الأنتيل، التي كانت في الأول مستعمرة إسبانية، ثم صارت فرنسية، وعلى إثر انتفاضات وثورات مسلحة قام بها صغار المستوطنين البيض من جهة، والأغلبية السوداء الذين كانوا عبيدا من جهة أخرى، تمكن هؤلاء في الأخير من طرد الحكام الفرنسيين سنة 1804، وحكمها "جان جاك ديسالين"، بعد أن توفي زعيم الثورة الأول "توسان لوفيرتير" في أحد سجون باريس[4]. وحين اغتيل "ديسالين" سنة 1807، آل الحكم إلى اللواء كريستوف، الذي كان في الأصل عبدا طباخا، وحين قامت ثورة العبيد، خاض غمارها إلى جانب لوفيرتير وديسالين، ليصبح أحد زعماء الثورة. ولأنه كان

[3] ذهب بعضهم إلى البحث عن شخصية كريستوف في هذا الحاكم الإفريقي أو ذاك، ورددوا بكثرة اسم الزعيم الغيني الراحل أحمد سيكوتوري الذي كانت تربطه بإيمي سيزير علاقة صداقة وإعجاب متبادل.

[4] كان قد ذهب إلى باريس ليعرض الصلح على نابليون بونابارت، فقبض عليه وحبسه إلى أن مات.

صاحب مواهب غير عادية في الحرب وقيادة الرجال، فقد ارتقى بسرعة في سلّم الرتب ليصبح لواء في الجيش، غير أنه، وبعد أربعة أعوام من الحكم ((وانطلاقا من صفته السابقة كطباخ وجد أن الأكل تنقصه بعض التوابل ـ مثلما يقول المعلق على حلبة صراع الديوك في المشهد الأول ـ وأن المنصب الذي أعطي له هزيل الدعم)) فأعلن نفسه ملكا على هايتي. مما أدى بالبلد إلى الانقسام، وقيام جمهورية في الجنوب يحكمها الخلاسيون بقيادة بيتيون، ومملكة في الشمال ذات أغلبية سوداء يتزعمها كريستوف. وتطور الخلاف بين شطري الجزيرة ليؤدي إلى اشتعال حرب أهلية مدمرة، عادت فيها الغلبة في الأخير إلى كريستوف، وكاد ـ لولا مرضه وموته المفاجئ ـ أن يستولي على الجزيرة كلها، ويوحدها بالقوة تحت سيطرته[5].

وكان كريستوف رغم ذكائه، وصفاء ذهنه، وبعد نظره، رجلا

[5] قام بهذه المهمة بعده خلفه اللواء بوايي، وحكم الجزيرة مدة تزيد عن عشرين عاما.

دمويا، فظ الطبع، يقتل رعاياه لأتفه الأسباب، إذ يرُوى عنه في هذا الصدد، أنه أطلق ذات مرة قذيفة مدفع من شرفة قصره على فلاح مسكين، رآه بالمنظار المقرب، نائما في ساحة عريشته في وقت غير وقت الراحة (راجع المشهد الثاني من الفصل الثاني)،كما أعدم أسقف كاتدرائية مدينة "الكاب" بطريقة غريبة وقاسية، لا لشيء إلا لأنه طلب منه إجازة يسافر فيها إلى فرنسا ليزور والدته العجوز، التي طالت غيبته عنها، فحبسه في بيته بالكاتدرائية، وأمر أن تسد عليه جميع المنافذ بالإسمنت (الفصل الثاني ، نهاية المشهد السابع). وتقول الرواية إن شبح الأسقف ظهر لكريستوف بعد ذلك على أحد أسوار الكاتدرائية، فأصيب بالشلل الذي أدى به ا لقعود عن السعي، ثم إلى الانتحار.

كل هذه الوقائع والأحداث نجدها مجسدة في "مأساة الملك كريستوف"، ويذهب معظم الذين بحثوا في الخلفية التاريخية

للمسرحية إلى القول بأن سيزير قد حافظ على تقديم تلك الحقائق بأمانة، إلا أن الشيء الأكيد أيضا أن المؤلف لم يفعل ذلك بغرض كتابة تاريخ الجزيرة، فهذه ليست مهمته، سواء بصفته شاعرا، أو بصفته مسرحيا، وقد كان، حسب استنتاجنا، واعيا تماما بهذا، وإنما قدم بعمله الفني قراءة للتاريخ، قراءة جديدة، سمحت له بطرح أسئلة لم تكن تطرح من قبل، واستجلاء حقائق لم تكن دائما واضحة، بل سمحت له، أكثر من ذلك، باستنطاق التاريخ، ومحاكمته عند الضرورة، وتأويل ملابساته، بما يتطابق والقناعات الشخصية، وتكوين نظرة مستقبلية تستمد قوتها من حقائق الماضي القريب أو البعيد. وقد تمكن الكاتب من أن يقوم بكل هذه المهام، فبحث، وتساءل، واستنطق الأحداث، وأوّلَ غوامضها، وندّد، وحاكم، وذكّر، وحذّر، وسخِر، وغنّى، دون أن يخل بوحدة الموضوع، أو تطور الحدث، أو انسجام أجزاء عمله الفني.

وتبقى شخصية كريستوف أهم قطب في المسرحية، حيث قدم لنا الكاتب فيه بطلا مأساويا من الطراز الرفيع، يذكرنا كثيرا بأبطال المآسي الكلاسيكية العظيمة، فيه عنف وقسوة، وضحاياه بلا حساب، هذا صحيح، وقد وقع هو نفسه في النهاية ضحية طموحاته التي لا تعرف حدودا، لكننا نجد فيه من جهة أخرى نبالة وسمو أخلاق، ودهاء وعبقرية، وشجاعة وصلابة موقف، وهذه الصفات كلها كانت هي صفات "عطيل" و"يوليوس قيصر"، و"نابليون"[6] وغيرهم من عظماء القادة وأبطال المآسي. كانوا طغاة ولكن كانوا رغم ذلك عظماء، نشجب عنفهم، ونستنكر فظاظتهم، ونأسى لضحاياهم، وندهش من تصلبهم وعنادهم، ولكننا نُكِن لهم في الوقت ذاته إعجابا خصياتهم، وعبقرية تفكيرهم، وعلو همتهم، وعظمة أعمالهم. وهكذا كان الملك كريستوف ـ كما صوره سيزير على الأقل ـ فقد اجتمعت

[6] كان كريستوف يلقب بـ"نابليون الأسود".

في شخصه جملة من التناقضات والصفات المحمودة والمذمومة في آن معا، تُكوّن لدينا بدورنا إحساسا متناقضا نحوه، يجعلنا نتفهم سلوكه ولكننا لا نؤيده فيه، ونعجب به ولكننا نستنكر قسوته مع ضحاياه.

تتكون "مأساة الملك كريستوف" من مدخل (Prologue)، وثلاثة فصول، وفاصلين (intermèdes)، وقد ذهب بعض النقاد الى القول بأن المدخل (حلبة صراع الديوك)، والفاصل الثاني (حوار الفلاحين في الحقل) يشكلان - بالرغم من قصرهما - فصلين آخرين. يتبع المؤلف في عرض أحداث المسرحية خطا زمنيا مستقيما، فيقدم الوقائع متتالية كما حدثت في التاريخ، بحيث تبدأ باعتلاء كريستوف كرسي الحكم سنة 1807 رئيسا للجمهورية[7]، مرورا بتتويج نفسه ملكا على الجزيرة سنة 1811، ثم بسقوطه مشلولا بعد أن ظهر له شبح الأسقف "كورناي

[7] لا يعطي المؤلف أهمية كبيرة للمرحلة التي شغل فيها كريستوف منصب رئيس الجمهورية، ويبدأ المشهد الأول مباشرة من اليوم الذي يعلن فيه عن عدم رضاه بهذا المنصب وإعلان نفسه ملكا.

بريل" في الكنيسة، وتنتهي بموته منتحرا سنة 1820. وهو بهذا البناء يقترب كثيرا من النموذج المسرحي الكلاسيكي المعروف، الإنكليزي بالتحديد، والشكسبيري بوجه خاص، ويبدو هذا من خلال العديد من الملامح والمؤشرات، أولها التسلسل الزمني للأحداث، ومنها مثلا ثنائي الملك والمهرج (كريستوف/هيكونان)، الذي يعدُّ أحد تقاليد مسرح شكسبير المعروفة، وكذلك عدم الالتزام بوحدتي الزمان والمكان - مثل شكسبير- فالأحداث تجري في أماكن متفرقة ومتباعدة، بين القصر، والحقول، والكاتدرائية، وفي مدن متباعدة، "الكاب" و"بور أوبرانس"، أما من حيث الزمان فتدور الأحداث في فترة تمتد على مدى يقارب العشر سنوات. (يمكن أن نشير في هذا الصدد إلى حفل تتويج كريستوف الذي يجري في المشهد الرابع من الفصل الأول، وحفل ذكرى التتويج الذي يجري في المشهد السابع من الفصل ذاته)، ويخلط الكاتب في مأساته أيضا بين المحزن والمضحك، وهو ما

يفعله شكسبير أيضا في مآسيه، ولا يسمح به التقليد المتبع في المسرح الكلاسيكي الفرنسي، الذي يفترض أنه يدخل في ثقافة سيزير المسرحية.

أما من حيث موضوع المسرحية ـ ولا أقصد هنا وحدة الفعل التي يعدها المسرح الكلاسيكي شيئا مقدسا ـ فقد حدده المؤلف نفسه في مفهوم "الزنوجة"، ولكنه أضاف تفصيلا، أو تفريعا مهما هو"الزنوجة" في مواجهة ثلاث مشكلات: ميتافيزيقية تتعلق بكينونة الإنسان الأسود، وسياسية تتعلق بنظام الحكم الذي يضمن انسجام العلاقة بين السلطة والشعب، ونهضوية تتعلق بالانتقال من حالة التخلف والتبعية إلى الاستقلال والمسؤولية (راجع ما جاء على لسان المؤلف، المشار إليه في الهامش رقم1 من هذا التقديم). والواقع أن هذه المشكلات كلها مطروحة بقوة في المسرحية، ولكنها غير مفصولة عن بعضها بعضا، فهي متداخلة ومتمازجة بحيث يصعب الإمساك بواحدة

منها بمعزل عن الأخرى، وكمثال على ذلك نسوق المفهوم التالي لمعنى"الحرية" كما جاء على لسان كريستوف، يقول: ((إن أحوج ما يحتاج إليه هذا البلد، وهذا الشعب هو الحرية بلا ريب، ولكن ليست الحرية السهلة... لابد أن تكون له دولة، أن يكون لهذا الشعب المجتث الجذور، شيء يستطيع بفضله أن يتجذر، ويبرعم، ويتفتح، ويلقي في وجه العالم بعطور وثمار الإزهار)). (نهاية المشهد الأول من الفصل الأول). فهذا التصور لمفهوم الحرية هو في الواقع تصور كلي يتضمن كل المشكلات المشار إليها أعلاه، فالحرية ليست مفهوما مجردا ومعزولا عن النشاط الإنساني.

ولا يمكن للإنسان أن يمارس حريته ويجسدها في الواقع إلا من خلال "العمل"، فالعمل هو الذي يعطي للإنسان حريته الحقيقية، ويحفظ له كرامته، ويدفع به إلى صنع المعجزات. والإنسان الأسود هو أحوج من غيره إلى العمل، ليمارس حريته

من جهة، ويتدارك ما فاته، ويثبت للعالم كله أنه قادر على صنع المعجزات. ((لابد لهذا الشعب من أن يحصل على شيء مستحيلا يرغب فيه، ويعمل على تجسيده)). وقد تجسد هذا الشيء المستحيل في بناء قلعة تمثل الحرية، وترمز لكفاح الشعب وجدارته بالحرية والاستقلال. يقول مخاطبا مهندس القلعة: ((إن لكل شعب نُصُبه التذكارية، ولذلك فلا بد أن يكون لهذا الشعب، الذي أراد له أعداؤه أن يركع على ركبه، نصبٌ يوقفه على قدميه)). (نهاية الفصل الأول) .

وجدير بلفت النظر هنا أن فكرة تحقيق الحرية عن طريق العمل، ومن ثمة عدم حق الرجل الأسود في الراحة، قد تكررت في أعمال أخرى لسيزير، مما يعني أنها فلسفته لديه في مفهوم الحرية، يبثها على لسان شخصياته. وهكذا نجد، على سبيل المثال، أن لومومبا في مسرحية "موسم في الكونغو" يردد الفكرة نفسها، بالعبارات ذاتها تقريبا، التي جاءت على

لسان كريستوف. يقول: ((أيها السادة من نكون؟ سأقول لكم، ما نحن إلا محكوم عليهم بالأشغال الشاقة. ما أنا إلا محكوم علي بالأشغال الشاقة تطوعا، وأنتم أيضا لستم إلا من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وما ينبغي لكم إلا أن تكونوا كذلك، أعني رجالا محكوما عليهم بالعمل الذي لا ينتهي، وليس لكم أي حق في الراحة))[8]. غير أن مأساة البطل عند سيزير، سواء أكان كريستوف أو لومومبا، تنبع من عدم تجاوب الشعب معه، لأن الشعب غير مهيإ لفهم فكرة "الزعيم"، وغير مدرك لأبعادها، ولذلك نجد الشعب غير متحمس للفكرة، وغير مقتنع بجدواها. وهذا ما يفسر عدم تجاوب الشعب مع كريستوف بشأن القلعة التي أمر ببنائها، وجند لها كل أفراد الشعب، ولم يستثن منهم حتى الأطفال والنساء والشيوخ. كان كريستوف ينظر إلى هذا البناء الشامخ نظرة اعتزاز، ويعدها نصبا قوميا يرمز

[8] "موسم في الكونغو" الفصل 1، المشهد 8. مطبوعات سوي. باريس 1973. ص34.

إلى الحرية وإلى كفاح الشعب، ولكن الشعب لم يكن يشاركه في هذا التصور، بل على العكس من ذلك، كان ينظر إلى العمل المفروض عليه في القلعة كجهد لا طائل من ورائه، بل كعقاب على ذنب لم يرتكبه. وقد عبر كريستوف عن خيبته في عدم تجاوب الشعب معه بقوله: ((آه، يا لها من مهنة، مهنة ترويض هذا الشعب، ها أنا ذا كأنني معلم صبيان، أرفع السوط في وجه أمة من التلاميذ الكسالى. أيها السادة، افهموا جيدا معنى هذه العقوبات)). (المشهد الثالث من الفصل الثاني). أما الشعب فهو في حيرة من أمر كريستوف، الذي يتعامل معه كجمع من الأطفال القُصّر، وتتناقض أقواله بشكل صارخ مع أفعاله، ففي الوقت الذي يصرح فيه أن غرضه الأول والأخير هو خدمة الشعب والحفاظ على حريته وكرامته، تراه يرغم الشعب على القيام بأعمال مرهقة لا تختلف في شيء عن أعمال السُّخرة التي كان يرهقه بها البيض بالأمس القريب. وقد عبرت إحدى السيدات

عن هذا التناقض أحسن تعبير حين قالت: ((إن الملك كريستوف يخدم الحرية بوسائل العبودية)). (المشهد الثاني من الفصل الثاني). من هنا تبدأ معاناة البطل ، ويدخل في صراع منهك مع نفسه ومع محيطه، وينتهي به الأمر إلى الشعور بالهزيمة واليأس، ثم إلى الانهيار والانتحار. لقد كان كريستوف يحب شعبه، ويعدُّه أسرة واحدة، متضامنة ومتكاتفة، ويعُدُّ نفسه أبا للأسرة، ومسؤولا عن مستقبلها وسعادتها، ولذلك فلا شيء يسره مثل مناداة الناس له "بابا كريستوف"، لكن شعبه لا يفهمه، ولا يتجاوب معه، فيلجأ إلى استعمال وسائل الإكراه، ويتمادى في الاستبداد والقسوة، فتقع القطيعة بينه وبين شعبه، وينتهي إلى الشعور بالخيبة واليأس، وينحدر شيئا فشيئا نحو النهاية المحتومة، الموت.

وهناك في مقابل هذا الجانب المأساوي في المسرحية جانب

مناقض له، أولاه المؤلف عناية خاصة، ألا وهو الجانب التهريجي الساخر، الذي يتجلى بالخصوص في تصويره لحياة البلاط في قصر كريستوف، وسلوك أفراد الحاشية الملكية، الذي اتسم بكثير من السوقية وقلة الذوق، ويبدو هذا أمرا طبيعيا، من حيث أن أفراد الحاشية هم من العبيد القدامى، وهم أبعد ما يكونون عن تقاليد النبالة وحياة القصور، إلا ما يمكن أن يكون بعضهم قد تعلمه من خدمته السابقة في القصور. وقد أخذ الكاتب من هذا الجانب مادة خصبة للتندّر والسخرية، وتمثل ذلك خاصة في ألقاب النبالة التي راح كريستوف يوزعها على أفراد حاشيته، مثل: كونت، ودوق، وماركيز، على شاكلة الألقاب في البلاطات الأوروبية، ولكن هذه الألقاب تتحول مع الأسماء الأصلية لأفراد الحاشية، المشتقة في الغالب من أسماء وصفات المهن الحقيرة التي كانوا يمارسونها من قبل، إلى أسماء مضحكة وشديدة الغرابة. وكذلك يتحول أفراد الحاشية، وهم يتعلمون

تقاليد النبالة وأصول الرقص، على يد الأستاذ الأوروبي - الذي جاء (ولنلاحظ السخرية) في إطار التعاون التقني، خصيصا لهذه المهمة - إلى نسخ مكررة من شخصية "جوردان" في مسرحية "المثري النبيل" لموليير، وهو يتعلم أصول النبالة.

لقد كان غرض كريستوف أن يتشبه بملوك أوروبا، ويحيط نفسه بمظاهر الأبهة والسلطان التي يحيطون بها أنفسهم، حتى يظهر في أعين شعبه وأعين العالم، أنه لا يقل عظمة عن أولئك الملوك، غير أن تقليده لملوك أوروبا جاء فارغ المحتوى، فاقد الأبعاد، لا يراعي أية خصوصية للزمان أو المكان أو الإنسان، وهو الشيء الذي جعل من بلاط كريستوف صورة كاريكاتورية عن تلك البلاطات، وهذا بالذات هو الذي جعل المؤلف يركز - حسب رأينا - على هذا الجانب، فيسخر منه سخرية مرة، وينقده نقدا لاذعا. وغرض سيزير من هذا واضح، إنه يدعو

الأفارقة إلى نبذ التقليد الأعمى للآخرين، والبحث بدلا من ذلك عن نماذج أصيلة، نابعة من التقاليد الإفريقية العريقة، وحضارتها المتميزة، أو لنقل، بتعبير آخر، إنه يدعوهم إلى التخلص من عقدة النموذج الغربي، على ذلك النحو الذي شرحه ابن بلده، المفكر والطبيب النفساني "فرانز فانون" في كتابه "بشرة سوداء وقناع أبيض"، لكن، إلى أي مدى يمكن فيه للرجل الإفريقي أن ينبذ النموذج الغربي؟ وهل يستطيع حقا أن يستغني عنه وقد أصبح اليوم رمزا للحضارة والتقدم العلمي؟ وإلى أي مدى يمكن له أن يمضي في إحياء عاداته وتقاليده؟ أنعُدُّها موافقة ضمنية من المؤلف مثلا، على إحياء ديانة "الفودو" الإفريقية، من خلال احتفائه بذكر أسماء آلهتها في مسرحيته، وتحويل بعض الصلوات المسيحية فيها إلى مشاهد من طقوس تلك الديانة الوثنية؟ أم أن ذلك يدخل

في حرص المؤلف على تقديم صورة قريبة من واقع المجتمع الهايتي، بما في ذلك معتقداته الدينية؟. لا نستطيع أن نجزم بذلك، ولكن يمكن أن نقول بالاستنتاج إن المؤلف إذا لم يكن يشجعها ويؤمن بها، فإنه لا ينكرها.

وبعد، فإنني مهما أسهبت في الحديث عن هذه المسرحية، أو أطلت الوقوف عند بعض طروحاتها، أو ناقشت بعض الجوانب الفنية والفكرية فيها، أو اجتهدت في تبيين بعض مزاياها، فإنني لا أستطيع أن أوفيها حقها من التحليل والنقاش، ولا أن أحيط بكل جوانبها الفنية، ولا أن أكشف عن كل مكنوناتها الخفية، ولا أن أغني عن لذة قراءتها، لاسيما أنها، بشهادة كبار النقاد، تعد أعظم أعمال إيمي سيزير الفنية، فقد جمعت بين سمو الفكر، وعمق التحليل، وبراعة الاستنتاج، وبين سحر الكلمة، وجماليات الفن الدرامي الرفيع. هذا، وإنني قد بذلت قصارى

جهدي في نقل هذا الأثر الأدبي الرفيع إلى اللغة العربية روحا وأسلوبا، رغم الصعوبات التي واجهتني[9]، وحافظت ما استطعت على نقل صوره، وأخيلته، وطابعه المحلي، وفنه بوجه عام. وحسبي إخلاص النية، ونبل القصد.

د/ أحمد منوّر

---

[9] تمثلت هذه الصعوبات خاصة في ترجمة أسماء الأشجار والنباتات الاستوائية، وكذا في استعماله أحيانا للهجة هايتي المحلية في الحوار، بالإضافة إلى استعمال اللغة اللاتينية والإسبانية في بعض المواقف.

تنويه

قدمت "مأساة الملك كريستوف" لأول مرة في مهرجان سالسبورك بتاريخ 4 أغسطس 1964 ، من إخراج جان ماري سيرو، ثم في "الأوديون" بباريس في العام الموالي، بدعم من جمعية "أصدقاء الملك كريستوف"، التي تضم بالخصوص: ميشال ليريس، وبيكاسو، وجياكوميتي، وكايتان بيكون، وأليخو كاربونتي، وأليون ديوب. وقد لقي عرض المسرحية نجاحا مضطردا في كل من برلين وبروكسيل، وفي حولينية البندقية، وفي دُور الثقافة بفرنسا، وفي مهرجان الفنون الزنجية بداكار، وفي معرض مونتريال الدولي، وفي يوغوسلافيا، وفي البيكولو تياترو دي ميلانو بإيطاليا.

شخصيات المسرحية:

(حسب الظهور على الخشبة).

بيتيون Pétion، **رئيس الجمهورية.**

كريستوف Christophe، **ملك هايتي، عبد، وطاه، وجنرال سابق في الجيش.**

هيكونان Hugonin، **خليط من الرجل الهامشي والمهرج والسياسي.**

فاستي Vastey، **بارون، وسكرتير كريستوف.**

مدير الحفلات.

ماكنيMagny، **دوق بليزانس، جنرال في الجيش.**

كورناي بريل Corneille Brelle، دوق آنس ورئيس أساقفة الكاب.

رئيس مجلس الدولة.

أمير الجيوش.

ميتيلوس Métellus، زعيم المتمردين.

زعيم المعارضة.

نواب الشعب.

شانلاط Chanlatte، شاعر البلاط .

بريزو Prézeau، مؤتمن أسرار كريستوف، ورَجُله المنفذ لكل المهمات.

السيدة كريستوف، الملكة، والخادمة سابقا في أحد الفنادق.

مارسيال باس Martial Besse، **مهندس.**

صبي مَرْكب (طوّافة).

قائد مَرْكب.

الحرس الملكي.

إيزابيل Isabelle .

ريشار Richard، **كونت القطاع الشمالي.**

فرانكو دي ميدينا Franco De Médina، **ممثل ملك فرنسا لويس الثامن عشر.**

أعضاء مجلس الدولة.

ترو بونبون Trou Bonbon، **كونت.**

كيرييه Guerrier، **دوق لافانسي، جنرال في الجيش.**

خوان دي ديوس كونزاليس Juan De Dios Gonzales ، قس، ثم أسقف "الكاب"

بعد وفاة كورناي بريل.

ستيوارد Steward، إنكليزي، طبيب الملك.

وصيف إفريقي.

بويي Boyer، قائد جيوش بيتيون.

مقدم عروض، كورس، مواطنون، فلاحون، فلاحات، عمال، جنود وضباط، حمالون، رجال البلاط، سيدات البلاط، أصداء نقر على طبول بعيدة.

الراوي: المنظر: دائرة من الأعمدة في شكل حلَبة .إنها حلبة الإثارة الهزلية : قتال الدُيوك، وهي الهواية الشعبية الرئيسية

في هايتي. جَمعٌ من السُّود يلبسون ثياب الفلاحين الزرقاء. جوٌّ مشحون بالعاطفة والحماس.

صوت منفعل: تقدَّم يا كريستوف، تقدم يا كريستوف.

صوت لا يقل انفعالا عن الأول: بيتيون اثبت. اثبت يابيتيون.

صوت ثالث: هذا غير طبيعي، لا، إنه غير طبيعي. من يُقنِعني أنه لم يُدهن بشحم الحَنَش، أو أنه غيرُ منكودِ الحظ.

صوت منفعل: اضرب يا كريستوف، اضرب.

صوت، في رجاء: بيتيون. انقلِبْ عليه.

الراوي: وتتصادم المناقير، ويتطاير الريش، في صمت قلق، ويمضي الطائران

في صراعهما الوحشي.

(يسمع حفيف ريش الديكين المتصارعين).

صوت زاعق يشق الصمت: انتهى أمره، انتهى، انتهى.

صوت شديد الهدوء: يا مُرَوّض، أَنهِضْ بيتيون.

الصوت الهادئ: انتهى، لا يعني أنه مات.

صوت أحد المتحزّبين من أنصار كريستوف: أَعْطوه عصير القصَب حتى ينهض ثانية.

صوت آخر: هَوُّوا له، فإن ما يلزمُه هو الهواء.

صوت هازيء: كفى، كفى، ما بيتيون إلا دجاجة من دجاج السّافانا.

صوت مُتَحَدٍّ: لا، يا سيدي، إنه ديكٌ مِقدام، عَالِجْ جلده بالزّنجبيل.

الجمهور المتفرج: أَعِده إلى الحلبة، أعده إلى الحلبة.

(يستأنف العِراك بكل ضراوة، يُسمع ذلك من حفيف ريش الديكين ومن ضربات منقاريهما).

صوت الجمهور: تقدم يا بيتيون، تقدم يا بيتيون.

صوت جماعة أخرى: كريستوف، كريستوف.

صوت: رائع. أقوى من تامبُور ميتر وبِيكْتِيزيي.

صوت آخر: يالها من ضربة ناحرة.

(يُسمع صياح الجمهور وتبلغ النشوة أقصاها لديه)

الجمهور: مرحَى. مرحَى.

المُقدِّم/المعلِّق: بعد هذه المعركة الرَّائشة، تعالوا بنا نلتقطْ أنفاسنا ونذكُر الأشياء بوضوح. نعم، فمنذ بعض الوقت، أصبح

هذا موضة في هذا البلد. قديما كان الناس يُسَمُّون الدُّيُوك تامبور ميتر، وبيكِينزيي، أو إذا شئتم: الطَّبَّال الكبير، وقلَعَ له عينه، أما اليوم فأصبحوا يعطونها أسماء السَّاسة: كريستوف من هنا، وبيتيون من هناك. في البداية لم يعجبني ذلك، ولكن حينما نفكّر في الأمر... يا إلهي، فإننا لا نجد هذه الموضة أكثر عبثية من غيرها. إن ملكا، أو رئيس جمهورية، هو بالضرورة خصمٌ لآخرين، وحيث أنه خصم، فلا بد أن اسمَيْهما يناسبان ديوك الحلبة. ولعلك تعترض عليَّ بقولك: إذا كانت الأمور من ناحية الدِّيكة هيِّنة، فإنها من ناحية الرجال أكثر تعقيدا.

وأُجيبك: إنه ليس تماما، فالمُهِم أن تفهم الوضع، وأن تعرف الشَّخصيات التي تحمل الديكة أسماءها. من هو كريستوف؟ ومن يكون بيتيون؟ إن دَوْري يتمثَّل في تقديم الجواب لك: في جزيرة هايتي التي كانت مستعمرة فرنسية، وتُعْرَفُ باسم سان دومينك، كان هنا في بداية القرن التاسع عشر جِنرال أسود،

يسمّى كريستوف، هُنري كريستوف، هنري بِهاءٍ كبيرة. بطبيعة الحال لم يبدأ برتبة جنرال، فقد كان عبدا، وبالتحديد، كان عبدا طبّاخا. كان ممن يُطلق عليهم في سان دومينك اسم "الزُّنوج الموهوبين"، أي شيء مثل "عامل متخصّص". هل قلتُ كان طباخا؟ كان كذلك في "فندق التّاج". احفظوا جيدا هذا الاسم المنقوش في زاوية المصادفة الموضوعية. كان في "فندق التاج" بمدينة الْكَاب الهَايتية، وكانت آنذاك "الكاب الفرنسية". كان ضد الفرنسيين، خاض نضالا جليل القدْر في سبيل تحرير بلده، تحت قيادة "تُوسان لُوفيرتير" (Toussaint Louverture). وعندما حصلت البلاد على استقلالها، بُعثتْ هايتي على رماد سان دومينك المحترقة، وتأسّست جمهورية لِلسُّود على أنقاض أجمل مستعمرة للبِيض، فأصبح كريستوف، بطبيعة الحال، أحد أصحاب المقامات العالية في الدولة الجديدة. حينها صار الجنرال كريستوف، صاحب الهَيْبة الكبيرة والقَدْر العظيم،

قائد المقاطعة الشمالية، وأحد آباء الوطن، كما يُطلقُ على مثل هذه الشخصيات في منطقة"الكَرايبب".

عند وفاة دِيسالين، رئيس الدّولة الهايتية، ديسالين المؤسّس للدولة، اتجهت كل الأنظار، بشكل تلقائي، نحو كريستوف، "الوريث"، فعُيّن رئيسا للجمهورية.

لقد سبق أن قلتُ أنه كان طباخا، أي سياسيا ماهرا، وانطلاقا من صفته كطبّاخ، فقد رأى أن الأكل تنقُصه بعض التّوابل، وأن المنصب الذي أُعطي له هزيل اللّحم، وحينئذ ترك مدينة "بُور أوبرانس" للخُلاسِيّين ورئيسِهم بيتيون، واستقرّ في المقاطعة الشمالية. باختصار، أصبحتْ في هايتي منذ ذلك الحين دولتان، تتعايَشان بشكل لم يكن دائما على ما يرام، جمهورية في الجنوب يرأسها بيتيون، وفي الشمال كانت هناك مملكة.

ها أنتم ترون كريستوف وبيتيون مُدرّبي دُيوك أو"ميتر-

كالوج" كما يقال في الجُزر. نعم كريستوف كان ملكا، ملكا مثل لويس الثالث عشر، ولويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، وملوك آخرين. وككل ملِك، ككل ملك حقيقي، أعني كل ملك أبيض، أنشأ بلاطا، وأحاط نفسه بطبقة من النُّبلاء.

لكن ينبغي أن لا نقول أكثرممَا قلنا، إذْ لكل مَقام مَقال، فإليكم هنري الأول، هنري، بهاء كبيرة. أما أنا فسأسكت. إليكم هايتي.

صوت هايتي: (زعيق حلبة آت من بعيد هو صوت هايتي): تقدمْ يا كريستوف، تقدم يا كريستوف .

(يرفع الستار على مأساة الملك كريستوف).

الفصـل الأول

(يجري هذا الفصل كله بأسلوب تهريجي وبتمثيل ساخر، حيث يبرز فيه الجاد والمأساوي بشكل فجائي شبيه بلمعان البرق)

المشهد الأول

بيتيون: بصفتكم، يا جنرال كريستوف، أنكم كنتم رفيقا قديما لـ"توسان لوفيرتير"، وبصفتكم أقدم قائد فرقة في لجيش، فإن مجلس الشيوخ يُسند إليكم، بالتّصويت بالإجماع، منصب رئاسة الجمهورية.

كريستوف: هذا صحيح، إن القانون واضح، فالمنصب يؤول إليّ، غير أن ما أعطاه لي القانون الأساسي للجمهورية، قد سلبني إياه قانون آخر صُوّتَ عليه، في ظروف مشكوك في شرعيتها. إن مجلس الشيوخ قد عيّنني رئيسا للجمهورية، لأن في مُجابهتي خطرا، ولذلك تقهقر. لكنّ الوظيفة أفرغها من مُحتواها، وكذلك أفرغ سلطتي من كل عَصَب فيها. نعم، نعم يا سادتي، إنني أعلم أن كريستوف لن يكون في دستوركم أي شيء آخر سوى ذلك الرّجل الثّخين، المصنوع من الخشب الأسود، والقرَويّ

الطيِّب القلب، المُنشغِل بضرب ساعات قوانينكم على بَنْدول ساعة عجْزه، بسيفه الحقير، لِيُسلّي به الجمهور.

بيتيون: إنّك تخطيء في حق مجلس الشيوخ. إنّ من يتفحّص الحليب الطّازج عن قُرب شديد، ينتهي باكتشاف شعَرات سوداء فيه. إن المنصب الذي نعرضه عليك، ما يزال يحتفظ بالرّوْنق والأهمية، إنه أعلى مناصب الجمهورية، أما بشأن التعديل الذي رأى مجلس الشيوخ مِن واجبه إدخاله على الدستور، فلا أُنكر انه يَحُد مِنْ سلطات الرئيس، ولكنه لا يخفَى عليك من ناحية أخرى، أن أشد المخاطر بالنسبة لشعب كان يحكمه دِيسالين، هو شيء اسمه الطُّغيان. والحقيقة أن مجلس الشيوخ كان سيرتكب ذنبا لا يُغتفر لو أنه لم يتَّخذ الاحتياطات لحماية رقابنا من السّيف الذي كان يتهددها على الدوام.

كريستوف: إنني لست خُلاسِيا يغربل العبارات، ولذلك أقول

لك بكل وضوح: إن التعديل الذي أدخله مجلس الشيوخ على الدستور، هو إجراء بعدم الثّقة، مُوَجّه ضدي أنا، ضد شخصي، وهو الإجراء الذي لا يمكن لكرامتي أن تسمح لي بالمُوافقة عليه.. الويل لحكمٍ لا قشر له ولا لُب، مجرد نِشارة وبُرادة، هذا هو الحكم الذي تعرِضه عليَّ يا بيتيون، باسم الجمهورية.

بيتيون: إنني أتأسف عن كوني قد أخفقت في أن أجعلك تفهمني، أحدّثك بالمبادئ فتأبى إلا أن تتمادى في الحديث عن شخصك. لكن لابد من إنهاء هذا الجدل. هل أعتبِر ما قلتَه هو الرّد الذي عليَّ أن أبلّغه لمجلس الشيوخ؟

كريستوف: كم سيكون بيتيون سعيدا أن يمسك بِي من لساني.

بيتيون: لماذا تقول هذا؟

كريستوف: لأن بيتيون ذكي، شديد الذكاء، ولا يمكن له أن يمنع نفسه من التفكير أن كريستوف لو رفض الحكم، فإن بيتيون

هو الذي سيفوز به.

بيتيون: يا لَلْوسواس، لماذا أقبل أنا بما تعافه نفسك، وبما تتقزّز منه أسنانك، وتلفظه كأنه نبتة حامضة؟ لماذا يستلذُّها فمي كأنها تفاحة لذيذة؟

كريستوف: لأن بيتيون ذكي شديد الذكاء، فما إن يقبل الخُلاسِي بيتيون الحكم المفرغ من محتواه بالشكل الذي جئتَ تعرِضه عليّ حتى تحدُث المعجزة، حيث سيعرف أصدقاؤنا الطيّبون، أعضاء مجلس الشيوخ، خُلاسِيو بورت أوبرانس، كيف يلعبون بمهارة دور عرائس الجن المشفِقات، وبوصية نفقة سخية سيملئون السلّة: خذ يا يتيون، خذ، وسترى أنها سَقّاطة إحسان عجيبة.

بيتيون: بحيث أن...

كريستوف: بحيث أن تعديل الدستور ليس إلا وسيلة فظّة

لتنحيَتي عن الحكم، في ثوب منحِه لي.

بيتيون: وتقبل أن تُنَحّى؟ أقبل أن أُنَحّى؟ لا يابيتيون. إنك إذا علّمت قِردا كيفية القذْف بالحجارة، فمن المُحتمل أن يلتقِط التلميذ حجرا ويكسر لك رأسك. بَلِّغ عنّي هذا القول لِمجلس الشيوخ، ولسوف يفهمون قصدي.

بيتيون: إن مجلس الشيوخ سوف يفهم أن ليس أمامه إلا جنرال متمرد.

كريستوف: حتى هذا ليس مهِما، فإذا أردت ردا رسمِيا، ردا نبِيلا، كما يحِبه مُشَرِّعونا في بور أوبرانس، فَقُل لهم إنني أتأسف أنهم في ظرف كهذا، وبدافع عدائهم الشخصي، لم يفهموا، في خضم العقبات التي نواجهها، أنّ أحوج ما يحتاج إليه هذا البلد، وهذا الشعب الذي ينبغي أن يُصان، وينبغي أن يُؤدَّب، وينبغي أن يُعَلَّم، هو...

بيتيون: هو الحرية.

كريستوف: الحرية بلا ريب، ولكن ليست الحرية السّهلة: وعليه، فلابد أن تكون له دولة، نعم يا سيدي الفيلسوف، أن يكون لهذا الشعبِ المُجتَث الجذور شيء يستطيع بفضله أن يتجذّر ويبرعِم ويتفتح، ويلقي في وجه العالَم عطور وثمار الإزهار، شيء يُلزِمه عند الضّرورة، وبالقوة، لِمَ لا نقول ذلك؟ أن يولد لِذاته، وأن يتجاوز ذاته. هذه هي الرسالة الطويلة ولا ريب بعض الشيء، التي أُحمّلها صديقي غير الأكيد، ليُبلّغها إلى أصدقائنا نبلاء بورت أوبرانس (يتخذ لهجة فظيعة، تغاير لهجة المهادنة التي كان يتحدث بها) أما الباقي (صوت إخراج السيف من غمده) فسيفي، وحقي.

المشهد الثاني

الراوي: الكاب. ساحة عامة. منظر على الخليج. سفينة تبدو في الأفق.زنجيات متجمهرات يعرضن على الأرض الخضر، والدواجن، والسكر، والملح. قدور مغطاة بأوراق شجر الموز . مجموعات من المواطنين يندس بينهم عملاء كريستوف، ويوجد من بينهم"هيكونان".

إحدى البائعات: قَصب سُكَّر، قصب سكر، هذا كل ما يمكن أن يشتهيه المرء، شراب "التَّافيا"، نبيذ أبيض، تبغ ملفوف، تبغ النخيل، أسياخ شِواء، شواء، شواء. (تتوجه إلى هيكونان) قصب سكر يا والدي؟ أو شواء؟

هيكونان: إيه يا مليحة، لا أريد السُّكر، أريد شيئا أكبر، لا

أريد الشواء، أريدُ إبنة حوّاء.

البائعة: عديم التربية، رَقيع. أيها السادة تعالوا من هنا، تعالوا إلى مرَق الملفوف، مرَق، مرَق.

هيكونان: ما يثير الحنَق، ليس المرق، بل هو شيء آخر، يحرّك دمي الغائر.

البائعة: حقير، نذْل، يا شرطي، يا شرطي، أنجدوني.

المواطن الأول: إنه لَمُثير للدهشة حقا أمر هذه السفينة، فمنذ شهرين وهي تتقدّم بشكل دوري إلى مدخل الميناء ولا يؤذن لها بالدخول.

هيكونان: بريء، لا تدري ما الأمر؟ (يغنّي)

ذاك حوت كبير،

يحوم ويعوم،

في فُلكه الجميل،

احذر، أيا هذا،

حافظ على البَنان،

من عضَّة الحيتان.

ومعناه الصريح: هذه سفينة مِلك فرنسا. وللإفادة بالعِلم، أُبلّغك أنه إذا احتاج سيدي إلى هراوات يداوِي بها آلام الحِقْوَين، فإن قعر السفينة مملوء بها.

المواطن الأول: لا تُهوّل الأمر يا سيدي، من يدري؟ فلعل هؤلاء الناس جاؤوا ليعرِضوا صُلحا يا إلهي، لو أن ذلك سيُمكّن البلد من اجتناب هزّات أخرى. لِمَ لا؟

هيكونان: أهذا ما تراه؟ إن للسيد قلبا رقيقا. السيد يريد تجنُّب الهزات. إن المصالحات يا صاحبي المسكين لا تجنّبنا

شيئا، ولا يجنِّبنا إياها حذَرك ولا جُبنك. إن المسألة مثل مرض الصَّرْع الذي يصيب بعض النساء، إذْ يمكن أن يصيبهن في أي مكان، وفي أي وقت، كذلك بعض البلدان التي تصاب بالهزّات، البلدان ذات التشنُّج. وقد كُتِب على بلدنا أن يكون واحدا من هذه البلدان. إنه قدَره، هل تَفهم؟ لا، لا تفهم. لا بأس.

(يأتي بعض الأعيان، ومن بينهم فاستي)

فاستي: أيها المواطنون، عودوا إلى دياركم، أمر هذه السَّفينة ليس من شأننا، إنه شأن كريستوف، فلكلّ واحد منا مهنته، لكم العمل، العمل الحر، لأنكم رجال أحرار، العمل من أجل أمة في خطر، ولكريستوف أن يحمينا نحن وممتلكاتنا وحريتنا.

المواطن الثاني: لقد أحسن القول، إنه رجل حقا هذا الكريستوف، وما وصَفه إلا بما فيه. إنه يختلف عن تلك الحشرة الرِّخوة التي تسمَّى بِيتيون، هذا الذي يبدو أنه عرض على ملك

فرنسا أن يقدّم تعويضا للمستوطنين البيض السابقين، مقابل الاعتراف به. رجلٌ أسود يعرِض على أولئك الذين حرمهم السود بدون تَرَوٍّ من امتياز تملُّكهم للسود. (يضحك بمرارة)

هيكونان: من أي شيء تشتكي؟ إنك تعرف الأغنية:

أَبيعكَ بقرتي،

بقرةً لَبُون،

تمنحُك الزُّبدة،

تمنحُك العُجول،

طَبقٌ من سمك"الغيدس"

اتفقنا، بِعتُك بقرتي.

فاستي: (بلا مبالاة).كريستوف رجل، أَيْ نعم، ومع ذلك فهو

مسؤول بعض الشيء عمّا نحن فيه، حتى وإن كان خَطأه بالطبع لا يبلغ درجة ما ارتكبه بيتيون.

المواطن الثاني: احذر يا سيدي بعض المُقارنات، فإن منها ما هو جارح.. جارح وخطير.

فاستي: (مجاملا). بل لكَ أقول، أيها المُواطن: حذار وستشاطرني الرأي.. أن الفرنسيين - وهذا لا يترك مجالا لخلق وضع خطير- لا يقدّروننا حق قدرنا.

المواطن الأول: هذا واضح، حيث أننا سود.

فاستي: نعم ولا. حاوِل أن تفهمني جيدا، ماذا يقول بِيض فرنسا؟ يقولون إن بيتيون وكريستوف ضعيفان كلاهما. إن الفرنسيين، كما لا يخفى عليك، لا يحملون التّقدير للجمهوريات، وقد برهن نابوليون بقوة على ذلك. وما عساها أن تكون هَايتي؟ إنها ليست حتى واحدة، إنها اثنتان، يا سيدي.

المواطن الأول: هذا صحيح، وما العمل يا إلهي، ما العمل؟

فاستي: (رافعا صوته، كأنه يعِظ الجميع). أيها المواطنون، إن العالَم كله ينظر إلينا، والشعوب تعتقد أن السُّود يفتقِرون إلى الكرامة، فإذا أردنا أن نكسب احترام الآخرين، فلابد لنا من مَلِك وبلاط، ومملكة. هذا ما ينبغي علينا أن نبرزه لهم، إن قائدا على رأس أمّتنا، وتاجا على رأس قائدنا يمكن - وأرجوكم أن تصدقوني - أن يهدّئا رؤوسا كثيرة، تحمل أفكارا هوائية، قد تثير العاصفة في أيّة لحظة، هنا، فوق رؤوسنا.

الحاجب: أيها السّادة، انتِباه. المِلك كريستوف.

الجميع: (يهتفون) يحي كريستوف، يحي كريستوف.

هيكونان: يحي المِلك كريستوف.

كريستوف: كفَى. ما هذا الشعب الذِي لا يمتلِك مِن الوعيِ

القومِي سِوى كُومٍ مِن السخافات. أيها الشعب الهايْتِي، إن هَايتي لا تخشى الفرنسيين بقدْر خشيتها من نفسها. إن عدُوَّ هذا الشعب هو كسله، وَسفهه، وحقده على الانضباط، وعقلية اللهو والغفْلة لديه. أيها السادة، إنني من أجل شرف وبقاء هذا البلد على قيد الحياة، لا أريد أن يكون هناك أبدا إمكانية القول أو إمكانية أن يشك العالَم في أن عشر سنوات من الحرية الزنجية، عشر سنوات من التَّسَيُّب والاستقالة الزنجية، تكفي لرَجْم الكنز الذي جمعه شعبنا الشهيد، خلال مئة عام من الكدّ وضرباتِ السّوط. ومهما ظل هذا القول يتردّد، فإنه لن يكون لكم معي منذ الآن الحق في أن تتعبوا. اذهبوا أيها السادة، اذهبوا، تفرّقوا.

الجميع: يحي كريستوف.

هيكونان: يحي كريستوف الرّجل.

الجميع: يحي الملك كريستوف.

المشهد الثالث

(تسمع ضوضاء أحاديث مجموعة كبيرة من الناس)

(في قصر كريستوف مجموعة كبيرة من رجال الحاشية تجمّعوا بغرض التّدرُّب على المراسيم التي تتطلّبها حياة القصور الملكية، يتوسطهم مدير الحفلات الذي سيعلّمهم قواعد البروتوكول، وهو رجل أبيض، انتدبته "مُنظمةِ التّعاون العِلمي للتربية التقنية" تحت بند: التعاون التقني الأوروبي للمناطق المتخلّفة).

مدير الحفلات: هيّا بنا أيها السادة، هيا بنا، واعذروني على دفعي لكم، لأن الملِك يمكن أن يحضُر فجأة في أية لحظة، فلابد أن نبدأ التدريب. سأبدأ بالمناداة بالأسماء، وبالتّذكير بالمبادئ العامةِ للحفل، الحفل الهام والرئيسي أيها السادة، الذي تتَجه إليه حاليا أنظار العالَم كله.

(يقوم أفراد الحاشية بحركات تقريد وسخرية تظهر في اللهجة التي يتحدثون بها)

رجل الحاشية الأول: سيدي الدُوق.

رجل الحاشية الثاني: سيدي الكونت .

رجل الحاشية الثالث: أيها الأَمِير.

(تتعالى الضحكات)

رجل الحاشية الأول: يا له من تاريخ، ويا لَهذا الملك، وهذه المملكة، وهذا التَّتْوِيج، إنه شيء يصعب تصديقه.

رجل الحاشية الثاني: شيء لا يصدَّق، ولكننا نحسُّه، إنه شيء منهِك.

فاستي: هذا الملك الأسْود حكاية خْيالية، أليس كذلك؟ هذه المملكة السَّوْداء، هذا البلاط، رَجْعُ صدى أسْود في غاية الإتقان،

لأجوَد ما أنتجته أوروبا العجوز في مادة البلاطات.

ماكني، دوق بليزانس، عزيزي فاستي، إنني جندي قديم، وكنتُ آمِرا تحت قيادة توسان ودِيسالين، وأقول لك بصراحة كاملة، إنني لم أُخلَق لحياة البلاط هذه التي يبدو عليك أنك تتلذّذ بها.

فاستي (في وقار شديد يبدو في طبقات صوته)، زميلي العزيز ماكني، أنت، دُوق بلِيزانس، من يقول هذا الكلام؟

رجل الحاشية الثاني، إننا بألقابنا الفخمة هذه، دُوق لِيموناد (Limonade)، ودُوق الْمَارمُولاد (La marmelade)، وكونت ترُو بُونبُونْ (Trou Bonbon)، لَنبعث على الشّهية. ألم يخطر ببالكم أن الفرنسيين سيشدُّون على ضلوعهم من الضحك وهم يسمعون هذه الألقاب؟

فاستي :(بتهكم)، مَهْ، أيها الجاحد. إن ضحك الفرنسيين لا يزعجني في شيء، مارمولاد، لِمَ لا؟ ولِمَ لا ليموناد؟ إنها أسماء تملأ أفواهكم، وهي مرغوبة في صُنوف الأطعمة. وعلاوة على ذلك فإنّ للفرنسيين ألقابا مثل، دُوق دُو فْوَا (De foie) ودُوق بْوِيُون (Bouillon)، ألا تفتح الشهية أكثر من ألقابنا؟ إن هناك سوابق كما ترون. أما أنت يا ماكنِي، فلنتحدّث بصفة أكثر جدّية، هل لاحظت ماذا بعثتْ لنا أوروبا عندما طلبنا العَون من مؤسسة المساعدة التقنية الدولية؟ لم تبعثْ لنا مهندسا، ولا عسكريا، ولا أستاذا، وإنما بعثت لنا مدير حفلات، أي بعثت لنا بالشّكل. هذه هي الحضارة يا عزيزي، وضْع الإنسان في شكل. فَكِّرْ في هذا، فكّر فيه، في الشكل أو الرّحِم الذي يصعد منه الكائن، والجوهر الفرد، والإنسان بالذات، وكل شيء على العموم، في الفراغ، ولكن الفراغ المُعجز، المُبدِع، المُصوِّر للحياة.

ماكني، ماذا يعني هذا الكلام المُلتبس؟

فاستي : هناك واحد يفهمه بالسّليقة هُو كريستوف، فبِيديه الرّهيبتين اللتين تشبهان يدي صانع الفخّار يعجِن الطّين الهَايتي، هو الذي على الأقل ـ ولا أدري إن كان يدرِك ذلك، والأفضل أنّه يحسُّه ـ يتشمّم الخيط المُتعرّج من المستقبل أو الشّكل بمعنى آخر. إنّه شيء هام في بلد مثل بلدنا هذا. صدّقوني.

ماكني: لِتذهَبْ إلى الشيطان أحلامُك هذه التي تشبه أحلام مُزَيِّن مهْووس. فلو كان أخذ برأيي لكان عليه عوض أن يدهن جسده بقليل من زيت الكاكاو، ويُمنطِق رأسه بتاج، أن يُمنطِق خصره بحمّالة سيفه، ويحمل صارِمه في قبضته، ولكُنّا حينئذ قد حثثنا الخُطَى نحو بور أوبرانس، حيث توجد أراضٍ جيّدة كنا سنستولي عليها، ويوجد أفّاقون كنا سنفلِق رؤوسهم.

هيكونان: لستُ من أربابِ السيف، لا، ولستُ محاربا متبجّحا، ولا وزيرا يتقلّد الرُّتب، ومع ذلك فإن لديَّ فكرتي الخاصة عن

المسألة.. فكرة عبقرية، هل تسمعونني؟ عبقرية، فكرة اختراعِ النّبالة هذه. إنها بالنسبة للملِك كيفية لتعميد من يشاء، ووسيلة تجعل منه عرّابا للجميع، وأبا لهم أيضا. وفي حالة ما إذا كنتُ وزيرا، حينئذ سأعرف جيدا المُقترح الذي سأقدّمه للملِك في مجلس وزرائه.

ماكني ها أنت ترى يا فاستي أين وصلنا، بلاط، ونبلاء، ومهرّج ملَكي.

هيكونان: منذ حين أصبحت الألقاب تتهاطل من كل صوب. أُقسِمُ أن هذا اللقب يساوي سواه تماما، سأقتنيه، وسأرحّب به. لا بأس.

فاستي: بالرغم من أن الأحجية فن قومي، فإنني أؤكد أن هذه تتجاوز فهمي.

هيكونان أترَى كيف أنك لا تعرِف كل شيء. (ضحك صاحب

من أفراد الحاشية). ولكن حذارِ هاهو.. يا لَلشيطان. ظهْري يأكلني.

مدير الحفلات: انتباه أيها السادة، هاهو الملك قادم. أيها السادة، أرجوكم. أيها السادة قليلا من الصمت، سأنادي بالأسماء:

عَظَمَة مولانا دوق اللّيموناد.

عظمة مولانا دُوق بْلِيزَانس.

سعادة سموّ المركيز دِي لافالاس.

عظمة مولانا دُوق دونْدون . (Dondon)

عظمة مولانا دُوق المارمولاد.

السيِّد الكونت دو تْرو بونْ تْرو. (Trou bon trou)

السَّيد الكونت دو صال تْرو. (Sale trou)

السَّيد الكونت دو لاباند دِي نور (La bande du nord).

حامِلُوالسِّلاح: جان لِوي لامُور. تُونتُون سيموتيِير. جان جاك سيفار. إتيان روجيستر. سوليد كيبيدون. جوزيف المنصور.

الضباط الملكيون: السيد دِي جوبيتير. السيد بيار بومبي. السيد لولو جولي كور.

طَيِّب، الكل حاضر هنا. السيد برافيري، أرجو أن تتكلّفوا بصفتكم أمين المخزن، بتوزيع النَّياشين الملكية. أما بشأن التقليد المعمول بهِ، فأُذكِّركم بأنها توضَع حسب التَّرتيب التالي: الحلَقة، فالسيف، فالدّرع، فيَدُ العدالة، فالصَّوْلجان. تفضلوا أيها السادة.

كريستوف: جيِّد، جيِّد، هذا جيِّد، ولكن ينقص العنصر

النّسوِي بشكل فظيع. أحضِروا السيّدات، وخصّصوا لكل واحدة منهن مكانتها اللائقة بِها في الحفل.

الحاجب: صاحب الجلالة، السّيدات حضَرن.

كريستوف: لِيدخُلن في الحين. تفضّلن سيّداتي الماركِيزات، سيّداتي الدُّوقات، عزيزاتِي الفارِسات. سيدتي دُو لا سورَانك (De la seringue) سيدتي دو بوتي ترو(Du petit trou)، سيدتي دي تَابْ أَلُويْ (De tape à l'œil) عزيزتي المِهذارة.

(يشرع أعضاء الحاشية في محاولة تدرُّب جماعي تتسم بالتهريج والارتجال)

مدير الحفلات: المِشية، اعتنوا بالمشية، وتجنّبوا الحركات المُتصلّبة وغير المُنتظَمة.. الحركات ينبغي أن تكون دائرية، والهيئة لا تكون متصلّبة كهيئة عسكري أثناء المناورات، ولا رِخوة رقيعة، والأرجل إفريقية، والأيْدي خُلاسِية، هيئة

وَقورة، وفي الوقت نفسه طبيعية، طبيعية وفيها أبَّهة.

كريستوف (غاضبا) إلهي، من ذا الذي ابتلاني بهذه الخلائق.. صال تْرو، يا للشّيطان يمشي بطريقة شيطانية.كأنك تكلّمني بوقاحة، (يمسك بخناقه). ليس هكذا على أية حال ستقدّم لي الصّولجان. إنني لن آكلك. إنه كمن يمُدُّ يده بحبّة موز لفِيل.

مدير الحفلات أعيدوا الكرّة أيها السادة، انتبهوا للمشية. إن كل شيء يكمُن في المشية. (بلهجة تعليمية متصنعة) اعلموا أنّ على الإنسان، لكي يحسن المشي، أن يكون معتدل الهيئة غير متصلّب، وأن يوَجّه رجليه في خط، وأن لا يخرج في مشيِه نحو اليمين أو نحو الشّمال عن محور سيره، وأن يشارك بشكل مُلفِت للنظر بكامل جسمه في الحركة الكلّية. عليكم الآن أن تطبّقوا، هيا، بسرعة، هيا، جميعا، واحد، اثنان، واحد، اثنان، واحد، اثنان.

كريستوف: (هادئا ثم منفعلا شيئا فشيئا) إنها فكرة سامية أيها السادة، ويسرني أن أراكم وقد أدركتموها بكل أبعادها، وبكل عمقها وجديتها، فكرة سامية هذه الأسماء الجديدة، وألقاب النّبالة هذه، وهذا التّتويج، فلقد كانت أسماؤنا في السّابق تُسْرَق منا كما كان يُسرق فَخارنا، نبالتنا، أقول كانت تُسرق منا، ما اسم بيار (Pierre)، وبول (Paul) وجاك، وتوسان، إلاّ المياسم المُهيَنة التي تطمِس أسماءنا الحقّة. أنا شخصيا، مَلِككم.. أتحِسُّون بما يعانيه رَجُل بسبب أنه لا يدري بأَيّ اسم يُدْعَى، ولا إلى أيّ شيء يدعوه اسمه؟ واحسرتاه، أُمُّنا إفريقيا وحدها تعرف ذلك. بمخالب أو بدون مخالب؟ كل الإشكال يكمن هنا، وأجيب: بمخالب. لابد أن نكون من ذوي المخالب لكي لا نكون وحدنا المُمَزَّقين، ولكن نكون المزِّقين أيضا. وحيث أنه لا يمكننا أن ننتزِع أسماءنا من الماضي، فانه يتعيَّن علينا أن ننتزعها من المستقبل. (بِرقّة): بأسماء المجد أريد أن أكسو أسماء الرّق التي

أُطلِقتْ عليكم، بأسماء الفخر، أسماء المهانة، بأسماء الانعِتاق أسماء اليتامى. إن المسألة أيها السادة تتعلق بولادة جديدة.
انظروا ما هذه النَّياشين الملكية؟ لُعَب، لُعَب لا شك، رجّة أيضا، جُزيْرات حجرية، آلاف من الزُّنوج نصفُ عرايا، لفَظَتْهم الموجة ذات مساء، تفوح منهم رَائحة الطَّرائِد، حملوها معهم من حيث أتوا. رجّة، رجّة، سافانا بيضاء، كما يقول أجدادي من قبائل الْبامبارا. رجّة قوّة القول، الفعل، التَّشييد، البناء، الكينونة، التَّسمية، الرَّبط، إعادة الفعل. وبناء عليه، سآخذها، لأني أعرف قيمتها، وسأعلّقها على صدري.

(موسيقى)

المشهد الرابع

الراوي: نحن الآن في كاتدرائية الكاب، في حفل تتويج كريستوف ملكا على هايتي. جمع كبير يحضر حفل التتويج، من أفراد الحاشية ومن المدعوين. يتقدم الأسقف كورناي بريل ويتلو بعض الصلوات باللغة باللاتينية.

الأسقف كورناي بريل: اغتنموا الخيرات، وحافظوا عليها محافظة شخصية،

أنتَ يا إلهَنا، يا من سننتَ مع صلاة القساوِسة والشّعب ما يجب،

ليعود المسيح في النّهاية ،على نحوِ جدير بِهِ ،

إلى تراب الأرض، بقرب الكنيسة، فينعم بالعدالة والأمن.

والآن، يا صاحب الجلالة، أرجو أن تتقدّم حتى أضع التاج

على رأسك، وأعمّدك ملِكا على هايتي. قبّل أوّلا أسفار الإنجيل حتى يباركك الرّب.

كريستوف: هات الإنجيل لأقبّله أيها الأسقف، لكن، أترى من الضروري أن نؤدّي صلواتنا باللغة اللاتينية؟

الأسقف: الإنجيل يقول: اغتنموا الخيرات، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: لا علينا، لنغتنم الخيرات، ولنُصَلّ باللغة اللاتينية، حتى تحصل لنا البركات.

الأسقف: والآن، قدّم لي رأسك، يا صاحب الجلالة، لأضع عليها التاج.

كريستوف: وهذه رأسي، أيها الأب المقدس.

رئيس مجلس الدولة: صاحب السّعادة، بِفضل اللّه، وطِبقا

لِلقانون الدستورِي للدولة، نعلن عن تلقيبكم بلقب "هُنري الأول"، وتتويجكم ملكا على جُزر الطُورتِي، وَكوناف، والجزر الأخرى المجاورة، باعتباركم قاهر الجبروت، ومغيّر حال الأمّة الهايتية، وصانع أفضالها، وأوّل ملِك يُتوّج في العالَم الجديد.

هتاف من قبل الحضور: يعيش هُنري إلى الأبد، يعيش هنري إلى الأبد.

كريستوف: أقسِمُ أمامكم عِلى الإنجيل، أنني سأحافظ على وحدة تراب المملكة، وعلى استقلالها، لا أقبل بعودة الرّق مهما كان المبرر، وأن لا أتخذ أي إجراء يتناقض مع الحرية، ومع الحقوق المدنية والسياسية للشعب الهايتِي، وأن أحكم فقط من منظور ما يعود بالمنفعة والسعادة والمجد على العائلة الهايتيةِ الكبيرة، التي أنا قائدها.

قائد السلاح: إن الملك الأكبر، الملك الأعظم، الملك هنري، ملك

هايتي، قد توّج وجلس على العرش. يعيش هنري إلى الأبد.

الجميع: يعيش هنري إلى الأبد.

الكورس: هنري، أيها المُحَارِب المِقدَام،

افتَحْ لنا أبواب النّصر،

هُنري أيها المُحارِبُ المِقدام، (يتحول الغناء إلى نشيد راقص

للإله شانكو) شانكُو، مادِيًا، إيلِيوِي،

أزانكو، شانكو، ماديا، إيلِيوي. (يكرر)

سافا لِوِي، سافا لِوِي،

أزانكو، شانكو، أمادِيًا، إيلِيوِي.

كريستوف: من أسفل سافل الانحناء، والعَنَاء،

انبجَستْ شمس الدُّفعة المُفاجِئة،

شمس الوقوف على الرّأس،

شَمس الشّعب المَلعون،

أضع عليكِ، أيّتها اللُّؤلُؤة،

عصا قيادة جنسي الّذي استُغِل،

وأضغط على قبضتي،

أضغط على قبضاتنا.

المشهد الخامس

الراوي: جانب من ساحة المعركة. الوقت مساء. صور من الحرب الأهلية الهايتية بين جيشيْ بِيتيون وكريستوف.

الجنرال ماكني: أَلمْ أقل لكم أن أجهِزوا على الجرحى؟

الضابط: إن هذا، يا حضرةُ الجنرال، هو قائد المتمرِّدين، وقد بدا لي أنه من الواجب أن أستشير بشأنه.

ماكني: حسنا. أأنت مِيتِيلوس قائد المتمرِّدين؟

ميتيلوس: أنا نفسه.

ماكني: لماذا هذه الانتفاضة؟ وما الشيء الذي ألَّبكم ضد كريستوف؟ تكلَّم.

ميتيلوس: حاملا حُلما معذَّبا،

أتعثَّر من حجر إلى حجر،

حتى بلغتُ عتبة بابك أيها الموت،

متدحرِجا، وذاكِرا،

بِيدُورِي، ومنحَدر الثَّعابِين، ومرتَفع بِيِيرُو بْلِيزَانس.

تلك الأماكن الَّتي لا يسرنا وجودنا بِها،

لقد عرفتُ بها ما يلي:

اختَرَقَتْني الأمطار حتَّى العَظم،

اخترقني الشَّوك، والحمَّى، والخوف،

عضَّني الجوع،

نِمت مُفتَّح العينين في نَدَى الصَّباح،

في صفاء العَتمة،

هربت، وعاينت القلق،

حينما أمسك القدَر بخِناقنا.

حاربت مع"توسان"،

كان دمًا زكيا،

مُرَاقًا في كل مكان من الطُّرق الموحشة،

وعلى منحدرات المَضايق،

في نباح البنادق كنا نرى الصَّبية الأمل،

كان كفُّاها يلمعان في ليل جلدها،

كاحمرار ورق الكَايْمَةِ المُعتم من الداخل،

كنا نراها وقد جفَّ قيحنا بِواسطة ورق المرجان الأحمر، ترقص لنا،

ثدياها عاريان بلا رحمة،

والدم بلا كسر،

كانت هي المجنونة التي تنادي بلا خوف

دمَنا الخجلان،

وتمنعه أن يسقط في التَّسمين، أو الراحة، أو ما يسدُّ الرَّمق،

كان دما جميلا، مبحوحا،

وكان "المَانيُوك" المر، بلا ضِمَادٍ يعيد غلق جراحنا،

تفاهة،

كنا كلنا مقبِلين فيما بيننا على تاسيس وطن،

لا تقتصر حدوده على مساحة هذه الجزيرة فحسب،

بل تنفتح على كل الجزر الأخرى،

لكلِّ الزُّنوج، زنوجِ العالَم باكمله،

لكن جاء مُلوك الطَّوائف،

ليقسموا البيت،

ويتجرَّؤوا على أمنا،

ويشوِّهوا وجهها على مرأى من العالَم،

دُمَى الفتنة الكريهة المنظر،

كريستوف وبِيتيون،

إنني لا أحكم للطُّغيان المزدوج،

طغيان الشَّرِس،

وطغيان المُرَاوِغ المعتدّ بنفسه،

ولا ندري أي الطَّرفين أسوأ من الآخر،

يا أرضنا العظيمة الموعودة،

إنَّنا لكي نحيِّيك تحية الرِّجال،

سهِرنا على قِمم الجِبال،

وفي بطون الشِّعاب،

وتمرَّغنا على هذه الأرض المسمَّدة، السوداء،

وصبغناها بدمنا المخصِّب،

كما تقتضي وصاية وارتعاشة المحَارة المحفوفة بالمخاطر،

والآن أيها الموت،

إنني أريد أن أسقط كحلم غير محدود،

وسوف لن أشكر أي امتنان عليَّ بالتاجيل.

ماكني: (للضابط) نفّذْ رغبته، خلّص روح هذا الشّقي، أطلِق عليه رصاصة الرَّحمة.

(الضابط يطلق النار، ويسمع سقوط جسم ميتيلوس ميتا على الأرض، وبعد هذا تسمع في ساحة القتال أصوات طبول ونفير).

كريستوف: إنه لَيوم مشهود، سقط فيه كثير من الرجال.. أجزاء كبيرة من وطننا، واحسرتاه، ويا أسفاه، صار وجهها يعاني من كثرة الخدوش التي أحدثتها أظافرنا فيه: "درووِيار،

كارشِي، دِيشِيزال، كلها من أجود الأراضي التي كانت تعطي غلالا لا مثيل لها، كسرةُ خبز تباركها أرضنا، أرض هايتي، وانظروا الآن ماذا ترون، حافات الآبار غزاها العوسج، جدرانا متصدّعة وَمحترقة وسط غابات الموز، أشجار الصبّار التي تخرِق برؤوسها المسلّحة الشبيهة برؤوس الأسمَاك، موجة "البابايوندا" الجافة، والرائحَة أيضا.

أتستنشقون؟ لست بحّارا،

ولكنّني أتصور أن رائحة هايتي،

لابد أن تكون في مِنخَر المستطلع هكذا،

رائحة الدم الجاف هذه التي تكشِط لك الحنجرة،

هذا الدخان،

وهذه العفونة العنِيدة،

ورائحة هذه المحرقة غير المقبولة من الآلهة،

مرحَى لنا، إننا على وشك الانتصار،

غدا، ثم ينتهي كل شيء،

انظروا، هذه قبّعة بيتيون ملقاة على الأرض، لم يبق لنا إلا أن نحمل لبِتيون غدا قبعته التي لم يجد الوقت الكافي لالتقاطِها.

(يضحك الضباط، و يعلو صوت النفير)

المشهد السادس

الراوي: أثناء الحرب الأهلية الهايتية، كريستوف في خيمته، قُبالة مدينة بور أوبرانس المحاصرة.

كريستوف: اسمع يا جنرال فاستي، أريدك أن تطرح لي أرضا، ترابا وحصى، طينا، وقشًا، ولبِنًا مبعثرا، حجرا، أريد حجرا، إسمنْتا، أريد إسمنتا، أريدك أن تجمع هذا الخليط، وترفعه صَرْحا، قويا، يواجِه العالَم.

(حركة ذهاب وإياب داخل المعسكر)

ماكني: معذِرة، مولاي. لكنّنا ننتظر ساعة الهجوم، وقد نفد صبر الجُند.

كريستوف: دعنا من هذا يا ماكنِي.

ماكني إن الفرصة الآن يا مولاي، أكثر ملاءمة من أيِّ وقت مضى. إن بِيتيون في وضع حرج، فاضرب ضربتك المحظوظة.

كريستوف: قلت لك دعنا من هذا، لن يكون هناك هجوم، سأتخلَّى عن فكرة أية حملَة، وقبل كل شيء سأتخلَّى عن محاصَرة هذه المدينة. لقد بعثتُ برسول إلى بِيتيون، وأتمنَّى أنه سيفهم أن الوقت قد حان لإنهاء خصوماتنا من أجل بناء هذا الوطن، وتوحيد هذا الشَّعب، لمواجهة خطر هو أقرب بكثير مما نتصوَّر، خطر قد يهدِّد وجوده هو في ذاته.

ماكني شيء لا يُصدَّق، هذا الإتحاد لا يمكن تصوُّره. الأمر لا يحتمِل إلا النصر أو الهَزيمة، واعذُرني على الإلحاح.

كريستوف: عليك أن تصدِّق ما قلته لك يا ماكني. وإذا كان على أحَدنا أن يُبادِر فليَكن أنا.. قلتُ لك امضِ.

ماكني: أملِي أن تتجلَّى لك الحقيقة قبل فوات الأوان.

(موسيقى)

زعيم المعارضة: زملائي الأعزاء في مجلس الشيوخ، بعد سماع ما كنتم تسمعونه منذ قليل، لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أنقل لكم الانطباع المؤلِمَ الذي أُحِس به. نعم أيها السادة، فهناك شيء أنا على يقين منه، وكلنا على يقين منه، وهو أن مملكة كريستوف ليست إلا كاريكاتور، غير أنني تساءلت مع نفسي فيما إذا كنا نحن هنا أرفع شأناً، وفيما إذا لم تكن جمهوريتنا نحن بِدوْرنا ليس إلا كاريكاتور جمهورية، وبرلماننا ليس إلا كاريكاتور برلمان. سيدي الرئيس، إنه لابد لك أن تقنِع نفسك: فللمجلسِ الحق في أن يعرف كل شيء، ومن واجبك أن تقول كل شيء. لماذا كل هذه المراوغات؟ ولماذا كل هذا التكتُّم؟ ماذا يُعَدُّ لنا؟ وماذا يحاك من وراء ظهر الأمة؟

بيتيون: إنني أقبل المعركة مع المعارضة - وإنه لفخر لنا تسامُحنا مع المعارضة - التي اختارت أن تخوض هذه المعركة

معنا في ظرف سيء جدا. إنني لا أنوي أن أخفي شيئا على المجلس، ولا أريد أن أؤثّر بلا تقدير لعواقب الأمور على حرية قراره. إنني رجُل ديمقراطي، ولا أريد أن أكون رئيس أمة حرة، ولكن أريد أن أكون قائدا لها. وعليه، فمنّي ستعرف الأمة كل شيء، والأمة هي التي ستتخذ القرار، وحين تتخذ الأمة القرار، كونوا مطمئنين بأن بيتيون سيتصرف بناء على ذلك.

زعيم المعارضة: تكلّم إذن، اشرح لنا، ماذا يريد الجنرال كريستوف في نهاية الأمر؟ ماذا يطلب منا؟ أن نعترف له بالرئاسة علينا؟ وبأي حق يطلب ذلك؟ أيكون بحق الدماء البريئة التي أهدرها؟ (تصفيق).

بيتيون: لو كانت المعارضة - وإنّه لفخر لنا تسامحنا هنا مع المعارضة - أقول: لو كانت المعارضة منقادة بشكل أقل لعقلية التسرُّع وسوء الظن، وكانت مواقفها نابعة من عقلية

الحيطة والاستقامة التي ينبغي على مُشرِّعي جمهورية حرَّة أن يستلهموها دائما في قراراتهم، لَمَا عملَ أحد، أيُها السادة، على تعكير صفو هذا الإجماع الوطني بخصومة غير مجدية، سيسعد بِها الأعداء كثيرا. حقا، إن كريستوف يعرض علينا وحدة الجزيرة، وغنيٌّ عن البيان أن ذلك سيكون تحت سلطته، وسيدفعه سخاؤه الملكي، كما أتصوّر، إلى التكرُّم عليكم وعليَّ بمناصب ثانوية منحطّة، أي بكلمة موجزة، سنصير رعايا لجلالته الملكية الخاصة بِهِ جدا.

أحد النواب: إنه عار.

نائب آخر: لا تعامل مع هذا الطّاغية.

أحد النواب: إنه باشا غريب الأطوار.

نائب آخر: بل هو لويس الثامن عشر أكثر مما هو كريستوف.

أحد النواب: لِتَدعُوَ عليه برجْزٍ من السَّماء.

(موسيقـى)

ماكني: وبعد، يا مولاي؟ ها أنت متوقِّف.

كريستوف: إفريقيا، أيتها البائسة، أردت أن أقول: هايتي، أيتها البائسة، مع العِلْم أنهما الشيء نفسه، هناك القبيلة، وَاللُّغات العديدة، والأنهار، والمراتِب الاجتماعية، والغابة، وهذه القرية ضدَّ القرية الأُخرى، وهذا الفرْع ضدَّ الفرع الآخر، وهنا زنوج وخُلاسِيون ومخالب، وزعماء طرائق، وما لا أدري من تكتُّل، ومن مراتب، ولون بشرة، وعدم ثقة، ومُزايدة، وصراع دِيكةٍ، وعراك كلاب على عظْم، وَقتال قُمَّل. (يزأر) تراب، تراب، في كل مكان تراب، ولا وجود للحَجر. (في هدوء): اسمع يا ماكني، أَعط الأوامر للجنود بالتحرُّك نحو الكابِ، نحو الشَّمال، إلى الأَمام سِرْ.

هيكونان: (في تهكم) أيها الرّفاق، تغيّر اتجَاهنا. بِزادٍ أو بغَير زاد، توَجّهوا نحو الكاب. لقد قال الملِك "قتال قُمّل". (يغني):

قملةٌ وبَرغوث

يعتلِيان مقعدا،

اختصما،

وهما يُقامِران،

ولشِدّة الغضب،

أمسكها البرغوث من شعرِها وقال:

ما أنتِ يا صاحبتي إلاّ حشرة مُقَمّلة،

كريستوف: حقا، إنها اللحظة المناسبة للغناء، يا هيكونان. (لفاستي) فاستي، إن العُنصر الإنساني بدوْره في حاجة إلى

إعادة الصّهر. كيف؟ لا أدري، سنحاول أن نجد الجواب في رُكننا الخاص، في ورشتنا الصغيرة. إن أصغر مقاطعة في الكون تكون شاسعة إذا كانت اليد سخيّة، والإرادة غير واهنة. إلى الأمام سِر.

(يخرجون، ويرتفع صوت النفير)

المشهد السابع

كريستوف: قل لي يا مُدير الحفلات، بهذه المناسبة السعيدة، مناسبة ذكرى تتويجي ملِكا على هايتي، كيف تتِم مأدُبة التَّتويج في فرنسا، وأين تُقام في العادة.

مدير الحفلات: نعم، يا صاحب الجلالة. (في تعاظم وتصنُّع) تُنَظَّم المأدُبة في اليوم نفسه الذي تمَّ فيه التتويج، ويكون ذلك في مدينة رِيمسْ، في القاعة الكبرى للأسقُفيَّة، أو في قاعة "الطُّو"، بمُشاركة كل وُجهاء الدولة، وكبير أمناء موزِّعي الأقوات، وهو يحمل قُفل صاحب الجلالة.

كريستوف قُفْل؟ إنه شيء مُثِير للفضول.

مدير الحفلات: الأمر يتعلق بصندوق كبير السُّقَاة، والصَّحن.

كريستوف: ماذا قُلت ؟ الصَّحن؟

مدير الحفلات الصّحن، والكؤوس، وقِنّينة جلالته، ومُقطّع اللحم، والملعقة الكبيرة، وسكين جلالته الكبير. والكل يلبس الثياب والمعاطف الحريرية السوداء المبطّنة بالذهب، وهناك أيضا منصّة تُنصَب للملِكة والأَميرات.

كريستوف: ما أغرب هذه الأمور، لكن إذا لم تجرِ الأمور على هذا النّحو فإن الملكة. أو السيدة كريستوف على الأقل، ستكون هنا، ليس على منصّة، ولكن بيننا بجانبنا، وهو أفضل، ولتذهب التّقاليد غير مأسوف عليها. إن كبير سُقاتي لن يسكُب اليوم خمرا، وَمقطّع اللحم لن يقطّع شيئا.

هيكونان: إن ما تقوله يا صاحب الجلالة، يُفْطِر قلبي، ويقطع رقبتي. (يدندن)

ريشة هي ذي،

طبخها لأجْلي،

وأكلها قبْلي،

لم يُبْقِ للصَّغير شيئا،

اِلْحَس الصَّحن، يا صديقي،

اِلحس الصَّحن،

كريستوف: اطمئنوا أيها السادة، لن تخدِموا، لكن سَتُخدَمُون.

هيكونان: مرحَى، إنني أتنفَّس، إنك تعيد لي الحياة يا صاحب الجلالة، الحياة والشَّهية .

كريستوف: أيْ نعم، يا مدير الحفلات، إنني لا أَمقُت شيئا أشد مِن مقتي للتَّقليد الأعمى، إنني أرى يا سيادة مدير الحفلات، أنه

إذا كان ولا بد من رفع هذا الشّعب إلى مستوى الحضارة ـ وأعتقد أن لا أحد قد سعَى في هذا المسعَى أكثر منّي ـ فلابد أيضا أن نترك للعبقرية الوطنية حرية التعبير عن ذاتها، ولهذا نحن هنا على هذه البساطة، أردت أن أقول: على الطريقة الهَايتية، إننا لسنا في قاعة "الطُّو"، كما تقول، ولكننا هنا تحت شُرفة عريشتنا الاستوائية، إن جاز لي التّعبير، لا نحتسي"الشّامبانيا" ولكن نشرب "البَاربانكُور"ذا الثّلاث نجوم.

شانلاط (منشدا):

ما ألطف القصَب،

فِي السّهل ينتحِب.

كريستوف: :ما هذا يا شانلاط؟ ما معنى هذا الشخير، وهذه الأنّات الشّاكية وسط هذه المأدُبة البهيجة؟

شانلاط: لا شيء يا صاحب الجلالة، إنَّما هي قصيدة تمجيد لعَرَق قصب السكّر، الذي أصبح شرابا وطنيا.

كريستوف: وطني. شراب وطني. شيء مُهِم جدا. أعِدْ. لنَرى.

شانلاط ما ألطف القصب، في السهل يَصْفرُّ

أسمع في المدَى البعيد مئَة معصَرَةٍ تَئنُّ،

من القصب المعقود يلمع الرّحيق في عينيَّ،

سُكّرا محوّلا،

أو يتلألأُ في زَبَده الخفيف الذي يعلو

ويختلج، ثم يفِرُّ من الكأس.

كريستوف: : ما من شك أنه عَرَقُ قصب السكّر. شيء جميل يا شانلاط، إنه وطني جدا، وسنعمل على تعليمه في المدارس.

هيكونان: ماذا؟ لا جُعَّة إذن؟ لا شَامبانيا؟ إن مُحدّثكم هذا وطني مثل أي وطني آخر مُعادٍ للبِيض مثل أي مُعاد آخر، لكنني أصارحك بأن الشّامبانِيا...

كريستوف: : يا لَغَضب السماء. أجبني بنعم أو لا، ألا يجب أن يكون لنا شِعْرٌ وطني؟ شامبانيا.. شَامبانيا، أيها الشّرِه. خذ هذه كعزاء لك عن الشّامبانيا، امسِك، أَشبِعْ نهمك تلقّف هذه القطعة من اللحم.

هيكونان: شكرا لك سيدي الوالد.

كريستوف: كُلْ أوّلا، ثم اشكر بعد ذلك. وأنت أيها الأسقُف، تحدث. تحدّثوا كلكم، مثل الأطفال في مطلع العام الجديد. لِيُقدّمْ كل واحد من الحاضرين هنا عبارات الثناء عند نهاية المأدُبة.

الأسقف: أقول إنكم قد وضعتم لَبِنة جميلة، وبنيتم منزلا جميلا، سيفسح الرَّب في أرجائه، ويوَطّده، ويُرفّه عنه.

كريستوف: (ضاحكا) أيْ نعم، أيها المترهّب العريق، غير أننا

حين ندعو الرب فإننا نضطر حسب توجيهاتك أن ندعوه باللغة اللاتينية.

الأسقف: إذا شئت، يا صاحب الجلالة، إذا شئت. فأنا لست دخيلا على مهنة الرَّهبنة.

(يقرأ باللاتينية): في الصباح يرتفع وينتصب حَجرُ اللُّؤلؤ

لِينْصبَّ فوقه الزيت في ربوة اليمين،

التي تسعَى إلى بناء البيت.

كريستوف: آمين .. قُل لي يا شانلاط، يا شاعرنا الفحل، ألم تشعر بالغَيرة منه؟ إذ أنه، من أجل أن يتلو علينا موعظته القصيرة، امتطى الأسقُف كورناي برِيل أجمل أحصنته الأسقُفية، في حين، ما يزال شيطان شعرك يرفس ويجرجر قوائمه كحصان حرون من أحصنة جرّ العربات.

شانلاط: كلا، كلا، بل هو مُقَاتل، ووطني، وغنائي، تلك هي صفات شيطاني، أيها الملك، إنه دائما على استعداد من الطراز الأول، وفي صحة ممتازة.

كريستوف: هذا جيّد. إنها بطاقة زيارة جميلة.

شانلاط: (ينشد)

يا لها نغمات شنّفت فجأة مسمعي،

يا لها من ألحان، يا لها من مشاعر جيّاشة، ويا للسّحر،

تزيّنتْ هذه المَناخاتُ به.

هل نحن أيقاظ، أم هي أضغاث أحلام،

وكذبٌ لذيذ وأوهام،

داعبتْ إحساسنا وهدهدت نفوسنا.

من المُحَارب الكريم ورِثتَ العرش،

إنه جزاء المجد للقلب النقي،

الحظ دوما باسِمٌ لصاحب المواهب والشجاعة،

مَن ينقِذ بلده يلامس بُردة المُلْك.

كريستوف: إنه لا يُلامسها بُردة المُلك، يا شانلاط، إنه يلبسها، وبكل استحقاق.. آيْ. آيْ. مَنْ هذا الذي يعضُّني في ركبتي؟

هيكونان: وَاوْ، وَاوْ، وَاوْ، أريد أن أقول: أنا كلب صاحب الجلالة، أنا جرْو صاحب الجلالة، أنا طاروس صاحب الجلالة.

كريستوف: عبارة مُجاملة تؤلم في بطّة الرِّجْل. ابتعِد عني أيها الأحمق.

بريزو: خطَاب لجلالتكم. رسالة من لُنْدُنْ، سُلِّمَتْ من قِبَل السِّير أليكْسِي بوفام.

كريستوف: من صديقي النبيل "وُلْبيرفورس". تمنيات بمناسبة ذكرَى تَتْويجي... كتب يخبرني أنه سجّلني في العديد من الجمعيات العلمية، وكذلك في جمعية "الكِتَاب المُقدَّس" الإنكليزية، (ضحكات وسط الحاشية) ما رأيك يا حضرة الأسقف؟ إن هذا لا يمكن أن يضر؟ ولكنك يا صديقي ولْبيرفورس لا تعلّمني شيئا جديدا، ولستَ الوحيد الذي يفكّر على هذا النَّحو حين تقول ((إننا لا نخلق شجرة ولكنّنا نغرسها، إننا لا

نعتصر ثمَارها ولكنّنا نتركها تحملها، والأمّة لا تُبتَدَعُ ابتداعا ولكنّها تنضُج نُضوجا عاما بعد عام، وعُروة بعد عروة)). ومع ذلك يوجد لديه ما هو جيّد، إنه ينصَحني بالتّرَيث ويقول لي "اِزْرعْ بُذُور الحضارة". بلى، ولكن لسوء الحظ أنها تنمو ببطء، يا لَغَضب السماء.. "واتْرُكِ الزمن لِلزمن"..لكِن ليس لدينا وقت لِلانتِظار لاسِيما أن الوقت بالذّات هو الذي يأخذ بِخِناقِنا.. أن تربط مصير شعب بوضعه في الشمس والأمطار، وتنتظر مواسم البذر، فتلك فكر سخيفة.

السيدة كريستوف: إيهِ كريستوف،

ما أنا إلاّ امرأة بائسة،

أنا التي كُنتُ خادِمة ،

أنا المَلِكة، خَادِمةٌ فِي فندق التّاج،

إن تاجا على رأسي لن يجعل منّي شيئا آخر غير المرأة البسيطة،

والزّنجية الطيّبة التي تقول لزوجها: حذار، إن كريستوف

أراد أن يضع سقف عريشة فوْق عرِيشةٍ أخرى،

وهو ما يجعل السَّقف يسقط داخلها أو يكبرها،

كريستوف، لا تسرف على الرِّجال في الطلب،

ولا تسرف على نفسك أنت أيضا،

ثم إنَّني أمٌّ، فحينما أراك أحيانا محمولا على حصان قلبك الجموح

يتعثَّر حصاني أنا وأقول لنفسي،

عسى أن لا تكون أخطاء الأب سببا في شقاء الأبناء،

أبنائنا يا كريستوف، فكِّر في أبنائنا.

يا إلهي، كيف سينتهي كل هذا؟

كريستوف: إنَّني أسرف على الرِّجال في الطَّلب لكن بأقلّ مما فيه الكفاية على الزُّنوج يا سيِّدتي. إنه إذا كان هناك شيء يثيرني بالقدْر الَّذي يثيرني حديث النَّخَّاسين فهو سماع الإنسانيِّين منَّا يرفعون أصواتهم، عن حسن نية لا شك، قائلين

إن الرّجال هم جميعا رجال، وليس هناك تمييز بين الأبيض والأسود. إن هذا تفكير مريح، إلاّ أنه يُحلّق بعيدا يا سيدتي. إن للرّجال جميعهم نفس الحقوق أوافقك على ذلك غير أن على بعضهم من الواجبات المشتركة أكثر مِمّا على بعضهم الآخر. هنا توجد عدم مساواة تتعلّق بتقدير النّاس لأنفسهم، أتفهمين؟ من ذا الّذي يمكن إقناعه أن كل الرّجال، وأقول كل الرّجال بلا تفضيل، وبلا إعفاء خاص، قد عرفوا التّهجيروالرّق والعبودية، ومعاملة البشر كالبهائم، والاعتداء السّافر، والإهانة المُقذِعة، وأنّهم جميعا تلقّوا كل أنواع الحقارة، ووُسِمَت أجسامهم ووجوههم؟ لا رجال سوانا يا سيدتي، هل تسمعينني، لا رجال سوانا نحن الزُّنوج. وحدنا إذن في قعْر الحفرة. على هذا النّحو أفهم المسألة. في الدَّرَك الأسفل من الحفرة. هناك نصرخ، ومِن هناك نأمل في الهواء والنور والشمس، فإذا أردنا الصعود فإنه لا يخفى عليك كم سيكون لزاما علينا تركيز الرِّجْل، وشدّ الْعضل، والضّغط على الأسنان، والحفاظ على الرّأس، آهِ الرّأس، واسعا وباردا. هذا هو السبب الّذي من أجله يُطلب من الزُّنوج أكثر مما يُطلب من الآخرين، عمل أكثر ودافعٌ أقوى، وحماس أوفر، خطوة، وخطوة أخرى، وأيضا خطوة أخرى، مع الحِفاظ على

كل خطوة مكتسبة. إنني أتحدَّث عن ارتقاء لم يسبق له مثيل أيُها السادة، ويا ويل من تخذُله قدمُه.

السيدة كريستوف: ملِك أنت، ليَكُن، ولكن أتدري يا كريستوف كيف يفهم رأسي الصغير المُفلفل معنى مَلِك؟ حسن، إنه ذلك الظِّل الوارف المستدير لشجرة ضخمة تتوسَّط غابة "سافانا"، تحطِّمها شمس حقودة، فتحتمي في كنفِها الماشية المتعطِّشة إلى الظل، أمَّا أنت؟ أمَّا أنت؟ إنَّنِي أتساءل في بعض الأحيان، بحكم أنك تُباشر كل شيء، وتسوِّي بنفسك كل شيء، إن لم تكن بالأحرى تلك التِّينة الضخمة التي تلتفُّ على كل النباتات المحيطة بها، وتخنقها.

كريستوف: تلك الشجرة تُدعَى "تينة ملعونة".. أمعني النظر في ذلك يا زوجتي. آه، أترينني أطلب الكثير من الزُّنوج؟ (منتفضا) تنبَّهي، أصيخي السمع. في مكانٍ ما في الليل طبول تُدق، في مكان ما في الليل شعبي يرقص، كل يوم هكذا، كل مساء، في حين يتربَّص الأُسْلُوتُ بنا في الدغل، ويحوم الخطر حول أبوابنا، ويتهيَّأ قناص البشر ببندقيته، وشبكته، وكُمامته. إن الشَّرَك منصوب، وجريمة مضطهِدينا تطوِّق أعقابنا، وشعبي

يرقص. (برجاء) لكن من؟ من يقدّم لي إذن شيئا أكثر من مجرد وعظ، وأكثر من مجرد مديح مسجوع، وعبارات تملُّق، وأكثر من مجرد محاذير امرأة. أقول: شيئا يدفع هذا الشعب إلى العمل، شيئا يربّي هذا الشعب، لا شيئا لتلقينه المواعظ. بالمناسبة يا برِيزو، ابعث لي بالمهندس مارسِيال باس، وأنتم يا زمرة الكسالَى والأكولين، ماذا تنتظرون لتذهبوا للرقص بدوركم؟ اغرُبوا عن وجهي. قلت اغرُبوا عن وجهي جميعُكم، لا أريد نساء ولا قساوسة، ولا رجال بلاط.. ألا تسمعون؟ اغربوا عن وجهي. سأسهر، أنَا الملك، بمفردي.

مارسيال باس: ها أنا ذا يا صاحب الجلالة.

كريستوف: ماذا يا مارسيال؟ أما من فكرة؟ أما من اقتراح؟

مارسيال باس: صاحب الجلالة، اصنع للشعب تراثا، تراثا خاصا بِهِ. تراثا من الجمال والقوة، والثقة بالذات. إنني لا أرى عملا أخلَقَ بِـ "روح قُدُس" يكون نداؤه دعوة لشعب يبلغ بِهِ أقصى المدَى. ويوقظ فيه قوته الكامنة.

كريستوف: شكرا يا مارسِيال باس، شكرا، سآخذ بفكرتك،

سأصنع تراثا، غير أنني أقول بأنه سيكون بالأحرى تراثا من الطاقة ومن الفخر، من الفخر، ولِمَ لا؟ انظر إلى صدر الأَرض المنتفخ هذا، إلى الأَرض التي تنكمش وتنبسط، وتنفلِت من سُباتها. إنها أول خطوة خارج الفراغ، أول درجات سلّم السماء.

مارسيال باس: يا صاحب الجلالة، أن تبني ذلك يعني أن تجابه عقبات رهيبَة.

كريستوف: تمامًا. إذ لابد لهذا الشعب من أن يحصل على شيء مستحيل يرغب فيه، ويعمل على تجسيده، رغم القدَر، رغم التاريخ، رغم الطبيَة. آه، آه، يا لَلفعل الجريء لأيدينا العزلاء، يُصنع بأيدينا الجريحة، ويكون التحدّي الجنوني على هذا الجبل حجر الزّاوية النادر، والأساس الثابت، والكتلة الصامدة، انقضاض السماء، أو استراحة الشمس، لا أدري، إنها أول مهامّ التغيير. انظر يا باس، تصوّر قيام قلعة على هذه الرُّقعة المهدَة، النادرة المثال من الأرض، تتجه نحو الشمال المغناطيسي بعلوّ مائة وثلاثين قدما، وبسُمْك عشرين للحيطان، مطلية بالكلس وثَفَل السكّر، بالكلس ودم الثّور. لا أريد قصرا، ولا حصنا أحمي به مكتسباتي، إنّما أريد قلعة حرية لشعب

بأكمله، يبنيها شعب بأكمله، رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا، تبنَى للشعب برمَّته. انظر إلى رأسها في السحاب، وأقدامها تحفر الهوّة، وأفواهها تقذف النار فتطال أعالي البحار، وتطال أعماق الأودية. إنها مدينة وقلعة، ومدرّعة ثقيلة من الحجارة، منيعة، يا باس، منيَة، نعم أيها المهندس. إن لكل شعب نصبه التذكارية، ولذلك فلابد أن يكون لهذا الشعب الذي أراد له أعداؤه أن يركع على رُكبِه، نصب يوقفه على قدميه. هاهو ذا النصب يطلع كالراصد.

(مُهلوِسا) انظر.. انظر.. ألا ترى؟ إنه يحيَ، إنه ينفخ البوق في الضباب، إنه يضيء في الليل. أُلْغيَ مَرْكَب الرَّقيق، المركب الرهيب، أيها الصِّحاب مشروب الملحِ اللاَّذع، وخمر الرمل الأسوَد. لقد رأيت أنا، نحن مُشقلبي البحر الهائج، رأيت جُؤجُؤ المركَب الملغِز الملطخ بالزبَد والدم، رأيته وهو يشقُّ عباب العار. فليُحَيِّي شعبي، شعبي الأسوَد رائحة ارتفاع مدِّ المستقبل. انظر يا باس، انظر القلعة وهي تنفصل مضيئة في عتْمة الليل، من بين صفَّين من الجبال، أترى يا باس ما أرى؟ أترى؟

(موسيقى)

(نهاية الفصل الأول)

فاصل

مقدم العرض: هل من الممكن منع بلد من الصُّراخ؟ إن هايتي عبارة عن شِدق قوي يمتد من مَلْطَم الأمواج "سان نيكولا" في الشمالِ إلى "جيريمي" في الجنوب، ولسان هايتي، ذلك الرُّواق الذي يأتي من بعيد، وسط الأراضي المرتفعَة، حيث يوجد أعمق آثار جروحه، الشّق الحي الذي تتمازج فيه لغته الأكثر حمِيمية، بدمه الأكثر خفاء، فيبتدعا له اسما لا تخبو جذوته هو "الأَرْتِيبونِيت". وإنْ أنا عُدت إليكم الآن مع إكباري واحترامي لكم، فلكي أحدّثكم عن نهر "الأرتِيبونِيت"، أو " أبو هايتِي" كما يسمِّيه الملك كريستوف. إنه النهر المسعِف المخادع، إذْ أنه يخترع سواعد، سواعد مزيّفة، وشِعابا، وألسنة، ليساعد الجميع، ويحمل كما لا يمكن لأي نهر آخر أجزاء من ملاحِم وآلهة، وإلا هات، وجنّيات، وأمل شابّ ويأسه، وقلق الهضاب العليا والسّافانا، وعُنْف شعب ولطفه. ويحمل الأَرتِيبُونِيت في جريانه

المتقلّب المزاج والأهواء، من تعرُّجات دوّامة إلى تعرجات دوامة أخرى، كما يجُرُّ في طريقه وعلى متنه، ويسفح ويَنشر كل شيء، من أعالي جبال " دومينيكانيًا" إلى..لا داعي للبحث عن ذلك في الخريطة، فإن اسمها "سالِين" الكبرَى، وهي عبارة عن جناح يحاذيه جناح، ليُشكّل تحليقا مهيبا لطيور النّحام الوردية وقت المَغيب، وهي كذلك محطة صخب كبيرتحدِثه الخنازير البرية في بُهمة أشجار القرَام والصّابة والدُّودُونيَا اللزجَة.. ويحمل معه، على حسب الموسم، جذوع أشجار البقّم الضخمة التي تلتصق ببعضها في شكلِ طوّافة يُزحلِقها الماء ويغذّيها بطميِه بمقدار خمسين مترا من حيث المساحة، وعشرة أطنان منْ حيث الوزن، والكل تجرِفه المياه، غارقا إلى النصف، محمولا على هيكل من قضبان الخيزران وجذوع أشجار الموز الطافية. وقيادة هذه الجُزيْراتِ الطافية ليست مهمة مريحة، كما أن مهمة أولئك الذين يركبونها ليست مريحة، ويطلَق عليهم اسم الطوّافين، إذْ لا شراع ولا سَكّان، ولذلك فهم يعتمدون في مهمتهم بالضرورة على استعمال قضبان شجرِ الأَنْج الطويلة. ومع ذلك فإن الطوّافين لديهم وقت للغناء ولسرد الحكايات وللتّفلسف.

صَبِيٌّ طوَّاف: (يغني) لَيْلِي ، يَا لِيلْ طَالَ الرَّحِيلْ

والصَّبْر قْلِيلْ وَالنَّهْر طْوِيلْ

جماعة الطَّوَّافين: (يردون عليه بالغناء)

طويلْ . طويلْ النَّهر طويل

الصبي الطواف: لَيْلِي يَا ليـل طالَ الرَّحيل

فَمَتَى الوُصولْ مَتَى الوُصُولْ؟

يا قائدنا متى الوصول؟

جماعة الطوافين: مَتَى الوُصول؟ مَتَى لوُصول؟

قائد الطوافين: سنصل سالِين على البحر في وقت أقصر.

صَبِيٌّ طوَّاف: ومع ذلك فهيَ مُدَّةٌ طويلة.

قائد الطوافين: إن صواب الصَّواب، ليس في الذَّهاب، ولكن في السُّؤال من أين الذَّهاب.

الصَبِيٌّ طوَّاف: (يغني)

يَا لَيْلِي يَا لِيـلْ   مَرْكَبُنَا يَمِيـلْ

أخشى من الغرق   في نهرنا الطويل

جماعة الطوافين: طَويل ، طَويـل طَويل طَويـل

قائد الطوافين: الصَّبر جمِيـلْ   الصَّبر جمِيـل

بعد قليـــلْ بعد قليـلْ

الصَبِيُّ طوَّاف: بعد قليل؟ ما معناه، يا قائدنا؟

قائد الطوافين: معناه: يا طوّافين، انتبِهوا، إن مَصَب النهر في سالِين الكبرَى ليس بعيدا. يا ولدي، عليك أن تنتبه هناك أيضا.

الصَبِيُّ طوَّاف: لكنَّنا وصلنا.

قائد الطوافين: هنا حيث ينبغي مضاعفة الجهد، فهناك في سالِين الكبرَى سيُلقون لك حتما بحبل، فإذا أمسكْتَ بِه فلا بأس، سوف تنزل إلى الأرض، وسوف ترسي، وإذا أفلت منك، فعليك السَّلام. لن يبق أمامك إلا أن تلقي بنفسك في أحضان بابا بحْرِي.

الصَبِيُّ طوَّاف: والطوّافة؟

قائد الطوافين: في هذه الحال، عليك أن تقول للطوّافة وداعا، أمّا أشجار البَقّم فتسلك طريقها إلى البحر فيبتلعها، ثم يبصقها على الشاطئ الآخر، عند بِيضِ أمريكا، حسب ما يقال. لم أذهب هناك لأرَى.

الصَبِيُّ طوَّاف: يالها من مهنة غريبة.

قائد الطوافين: لابد لك أن تعرف كيف تهمِز البهيمة، وأن تعرف كيف تمرّر لها اللجام. إن هذا ليس مهنة، إنها الحياة.

(موسيقى)

الفصل الثاني

المشهد الأول

(ريف هايتي. حقل. فلاحون في وقت الظهيرة)

الفلاح الأول: خُذ جرعة، إنه بارد هذا الماء، إنه من ماء النهر الذي يجري بين أشجار التفاح الوردي الشهي.

الفلاح الثاني: (يشرب)، حقا إنها باردة، جرعة واحدة تكفي لتبديد التعب عن جسدك حين يكون متصبّبا عرقا. إنه أفضل شيء يقيم الأَوَد.

الفلاح الأول: إن السماء تنذر بالمطر يا صاحبي، أتدري؟ إن قمة "بِيدوري" يلفُّها السحاب، وحين يلف السحاب قمة بيدوري فإن ذلك معناه أن الجو سيتقلب، هذا أكيد. ومع ذلك فلا شيء يمنع من القول بأنه بلد رائع الجمال بأشجار القهوة، والكاكاو، وهذا الماء الجاري بين أشْجار التفاح الوردي وقصب الخيزران.

الفلاح الثاني: نعم، يا صاحبي، إنني لا أنفي ذلك، فالبلد طيب، لكن الوقت ليس كذلك، هذا الوقت الذي نعيشه.

الفلاح الأول: إن هناك ما لا يقال يا صاحبي، فالوقت ليس طيبا في حد ذاته، أو رديئا. إن الذوق يوجد في الفم، والكيفية التي نتناوله بها هي التي تعطيه طعم الطّيبة أو الرداءة.

الفلاح الثاني: صدّقني يا صاحبي، هناك من لا يتركونك تتناول وقتك، إنهم يُجرّعونه لك في أعماق حلقك كالدواء.

الفلاح الأول: إننا لا نستطيع أن نذكر بسوء عقّارا نافعا، مستخلصا من أعشاب الربيع الجديد.

الفلاح الثاني: إنني لا أذكُر بسوء عقارا نافعا مستخلصا من العشب، ولكني أقول هكذا لأنه إذا كنا قد ألقينا المستعمرِين البيض من جديد إلى البحر، فمن أجل أن تكون لنا هذه الأرض، لا من أجل أن نشقى على أرض الآخرين، حتى ولو كانوا سودا، من أجل أن تكون لنا، مثل ما تكون لنا زوجة، هذا هو القصد.

الفلاح الأول لا ينبغي لك أن تتمرّد يا صاحبي. أنا شخصيا يخطر ببالي أحيانا أن كريستوف يعشق العصا كثيرا غير أن من يعشق استعمال العصا لا يعني أنه أب سيء أو زوج سيء. إن

أردت رأيي فإن بِيتيون رجُل طيب، من ذلك النوع الذي يترك حرية الفعل وحرية البذر. إنه مثل الأم التي تدلّل ولدها، وتعاكِس بذلك إرادة الوالد، لكن الوالد هو الوالد، وما يظهره من شدة إنما هو لصالح الولد، ولأنه يفخر بولده. فكّر في هذا يا صاحبي، فكّر.

الفلاح الثاني: عموما يا صاحبي، الفخر ليس ضروريا..ولكن التفهُّم...

الفلاح الأول: يا إلهي يا رؤوفا بالعباد. عيك يا صاحبي أن تسلمَ أمرك لمشيئته.

الفلاح الثاني إنه رؤوف ولكنه مُتعَال. وعملنا هو أن نرفع إليه الصلوات. ألا ترى هؤلاء الحراس الأشقياء؟ إنه يتعذّر عليك معهم حتى مجرد التوجُّه لله بالدعاء، فما إن تُقْرع الطُّبول حتى يقفوا عند رأسك كالزّبانية.

الفلاح الأول: عفوك يا صاحبي، عفوك..

(تُسمَع أرجل الخيل وهي تعدو).

الفلاح الثاني: ألم أقل لك؟ ها قد جاؤوا، إنهم حرس كريستوف، إنهم يرتدون زيًّا جميلا. هيا يا صاحبي، علينا أن نظهِر همّة في العمل وحماسا. (يخِف وقع أرجل الخيل شيئا فشيئا، إلى أن يتوقف نهائيا)(يدق الجنود الطبول، ثم يقرأ رئيس الحرس منشورا على الفلاحين بصوت يتضخم بين كل نوبة وأخرى من دقات الطبول، إلى حد الهوس)

رئيس الحرس: (يقرأ) (منشور ملكي سامٍ من الملك كريستوف، موجّه إلى كل الشّعب الهايتي عامة، وإلى الفلاحين العاملين في الحقول الملَكيّة على الخصوص.. رغبة مني، أنا الملك كريستوف، في أن ينفّذ منشوري هذا بحذافيره، ومن أجل أن تتوقّف كل التجاوزات التي انتشرت بين الفلاحين، فإنّني آمر بنظام عمل جديد يجب أن يُطبّق من هذه اللحظة، وهو ما يلي:

المادة الأولى: جميع المسيّرين للمزارع، والمشرفين على توجيه العمل، وجميع الفلاحين، مدعوّون إلى تنفيذ واجباتهم بدقة، وخضوع، وطاعة، كما يفعل العسكريون.

المادة الثانية: جميع المسيّرين، والمشرفين، والفلاحين، الذين

لا يؤدون بكل همة وجدية واجباتهم التي تفرضها عليهم الزراعة، سيُقبض عليهم، وسيعاقبون بنفس الصرامة التي يُعاقَب بِها العسكريون الذين يهمِلون واجباتهم.

المادة الثالثة: تكلّف قادة الجيشِ وضباطِهِ السامِين بِالسهرِ على تنفِيذِ هذا النظام الذِي أحملهم مسؤوليته بصفة شخصية. وأحب أن يبرهنوا لي أن إخلاصهم في نيابتهم عني، من أجل الصالح العام، لن يكون إخلاصا مؤقتا، وأنهم على قناعة بأن الحرية لا يمكن لها أن تحي بدون العمل. إمضاء كريستوف. (دقات طبول ثم تسمع أرجل الخيل وهي تبتعد بسرعة، إلى أن تختفي)

المشهد الثاني

السيدة الأولى: عزيزتي، أتدرين آخر خبر؟ إنه خبر طيب، ويهم جنسنا. تصوّري أنه جنّد الأسرة الملكية.. ومن ضمنها الفتيات، وأصبحتْ أثِينايَس وأمِيتِيست، الأميرتان كما يقال لهما، ملزمتين بالذهاب إلى ورشات العمل مرتين في الأسبوع على الأقل. الأميرتان!

السيدة الثانية: وبأية صفة، أرجوك، كبائعتي تموين؟

السيدة الأولى: ستقوم إحداهن بِالتلوِيحِ بالرّاية، وتقوم الأخرى باستنهاض همّة العمال الفاترة بصوتها. ولأجل ذلك اختُرِع لهما لقبين، فمن الآن فصاعدا ستكون هناك الملِكة راية، والملِكة شادية. هه، فبماذا تخبرينني أنت؟

السيدة الثانية: وا أسفاه، إن حكايتي أنا محزنة، إنها حكاية رجل بائس، كان نائما على ما يبدو، بساحة بيته، في ساعة غير مناسبة، أعني في ساعة لم يحدّدها نظام هنري للنوم. لَمَحَه الملك من أعلى القلعة بالمنظار المقرّب. آه، يا لَجُدودي، يا للغضب، ونادى أحد الضباط، ودخلا إلى رواق المدافع، وفي إمكانك أن تخمّني الباقي.

كريستوف: هاك، انظر.. تعال لِترى. قلت لك يا جنرال كِيرِيي، ماذا رأيت؟

كِيرِيي: فلاحا بائسا، يا صاحب الجلالة، مُتعبا، لا ريب.

كريستوف:: متعبا!.. يا جنرال؟ ضع البطّارية الثانية عشر في وضعية الإطلاق. سدِّد. أطلق النار.

الجنرال كِيرِيي: أطلقوا النار.

(يسمع دوي طلقة مدفع)

هيكونان: يا إلهي. لقد تطايرتِ العريشة شظايا، وذهب الرجل عصيدةً. مرحى يا صاحب الجلالة لكفاءة المدفعية الملكية. أيتها النفوس الرقيقة لا تتأثري، فقد انتقل الرجل من النوم الأصغر إلى النوم الأكبر دون أن يدري، إلى الراحة الدائمة.

السيدة الأولى: ما أفظع هذا! ما أفظع هذا!. لكن هاهو ذا السيد فاستي. سيدي البارون، أهلا بك.

فاستي: سَيِّدَتِي، إنّنِي أُقبِّلُ يَدَيْكِ.

السيدة الثانية: إنَّني أُسَرُّ برُؤيَتِكَ يَا سَيِّدْ فَاستِي، غَيْرَ أنَّ رُؤْيَتَكَ أصبَحَتْ نَادِرةً مُنذُ أنْ تَحَمَّلتَ مَسؤُولِيَةَ الدَّوْلَة.

فاستي: لِنَدعْ هَذا، سَيِّدَتِي.

السيدة الثانية: لَكِنْ نحنُ لَمْ نَعُدْ نُتْرَكُ لِحَالِنَا يَا سَيِّد فَاستي، فَقَدْ كَانَ يَا مَا كَان، فِي قَدِيمِ الزَّمَان، مَلِكٌ مَلِيءٌ بِالنَّزَوَاتِ المُتَوَحِّشَة، وَكَانَ رَعَايَاهُ يَتَساءَلُون...

فاستي: لاَ.. تَأَمَّلاَ ذَلكَ المَشْهَدَ الجَميلَ وَالنَّادر، مَشْهَدَ جُهْدٍ عَظِيمٍ يَتَحَقَّقُ، جُهْدٍ شَاقٌّ بِلاَ رَيْب، وَلَكِنَّهُ جُهْدٌ يَا سَيِّدَتِي.

السيدة الأولى: جُهْد؟ يَا إِلَهِي، لَمْ يَدُرْ ذَلكَ بِخَلَدِي. جُهد؟ لَكِنْ مَا الشَّيْءُ المُنْتَظَرُ مِنْ هَذا الجُهْد، إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ سَحْقُنَا تَحْتَه؟

فاستي: إِنَّنِي أَنْتَظِرُ مِنْهُ يَاسَيِّدَتِي أَنْ يُثْبِتَ وُجُودَنَا، وَقَبلَ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْ يُثْبِتَ وُجُودَنَا فِي أَعْيُنِنَا نَحْنُ.

السيدة الثانية: فِي انتظَارِ ذَلك، أَرَى أَنَّ هَذا يُشبِهُ بِشَكْلٍ فَظِيعٍ ذَلكَ الوَضْعَ الَّذِي عَرَفْنَاهُ بِالأمسِ جَيِّدًا، وَكُنتَ يَا سَيِّد فَاستي، وَفِي سَبِيلِ شَرَفِك، مِمَّنْ حَارَبُوهُ بِالأمْس.

فاستي: إِيهِ، إِنَّ التَّارِيخَ لاَ يَكُونُ لَهُ أَحْيَانًا إِلاَّ طَرِيقٌ وَاحِدٌ يَسْلُكُهُ الجَميع.

السيدة الأولى: إِلَى دَرَجَةِ أَنْ تَخْتَلِطَ فِيهِ الحُرِيَّةُ بِطَرِيقِ العُبُودِيَة!

السيدة الثانية: التَّنَاقُضَ اللَّطِيفُ الَّذي يَتَلَخَّصُ فِي أنَّ المَلِكَ كريستوف يَخْدُمُ الحُريَّةَ بِوَسَائِلِ العُبُوديَّة.

فاستي وإذا كَانَ قَدْ بَرْهَنَ على أنَّ إنْفَاقَ مَالِ الشَّيْطَانِ يَجْعَلُ مِنْهُ مَالَ اللهِ؟ إنَّ ما يَهُمُّنَا نحن يَا سَيِّدَتِي هُوَ عَظَمَةُ الدَّوْلَةِ وَحُرِيَّةُ الزُّنُوج.

السيدة الأولى: لَقَدِ اتَّضَحَ لِي يَا سَيد فاستي أنَّهُ لاَ يُمكِنُ لِي أنْ أجِدَ مُحَامِيًا بِمِثْلِ بَرَاعَتِك، لذلكَ كَفَانا سِيَاسَة.. إيزَابيل، اجْلِسِي إلَى القِيثَارَة، إنَّ لَهَا صَوْتًا فَاتِنًا هَذه الطِّفْلَة. إيزابيل، غنِّي لَنَا تِلكَ القَصِيدَةَ الجَمِيلَة، قَصِيدَةَ "أُورِيكَا".

فاستي: وَمَنْ تَكُونُ هَذِهِ الطِّفلَةُ الفَاتِنَةُ أُورِيكَا؟

السيدة الأولى: إنَّهَا بَطَلَةُ قِصَّة تُبكِي الآنَ بَارِيسَ كُلَّهَا. إنَّها قِصَّةُ طِفْلَةٍ سَوْدَاءَ نُشِّئَتْ فِي أُورُوبَا وَسَطَ عَائِلَة كَبِيرة بَيْضَاء، فَكَانَتْ تُعَانِي مِنْ لَوْنِ بَشْرَتِهَا، وَمَاتَتْ بِسَبَبِ تِلْكَ المُعَانَاة.

فاستي: إنَّهَا مُهِمَّة، جِدُّ مهمةٍ.

إيزابيل: (تغني).

طِفلَةٌ مِنْ غِينيَا السَّوْداء،

حَيْثُ السَّماءُ لاهِبَة،

وَرْدةٌ مِن بعيد، هي أورِيكا،

الطفلة التَّعيسةُ الحظ،

هكذا كانت تندُبُ حظَّها التَّعس:

يَا فَرنْسا، أنتِ الَّتي فَتَنْتِنِي،

كُنتِ تُخفِينَ عَنِّي، بَعْدَ تَحِيَّاتِ الوَدَاعِ

أنَّني عَلَى ضِفَافِك،

لَنْ أكُونَ أبَدًا مَحْبُوبَة.

أيُّهَا اللَّوْنُ الأبْيَض، يَا لَونَ المَلائِكَة،

كانَتْ رُوحِي خَلِيقَةً بِك.

أيُّهَا الإلَهُ القَدِير كنت أتَمنَّى

لوْ كُنْتُ بَيْضَاءَ اللَّوْن.

قَدَرُ أورِيكَا يَنتَهِي الآن.

لا شيء يعدِلُ الموتَ راحة.

السيدة الأولى: رَائِعْ! رَائِع!.مَا رَأيُكَ فِي هَذا يَا سيِّد فاستي؟

فاستي: رَأيِي فِي كريستوف يا سَيِّدتي؟ أتَدرِينَ لِمَاذا يَعمَلُ لَيْلَ نَهارَ؟ أتَدرِينَ لِمَ تلكَ النَّزَوَاتُ الوَحْشيةُ كَمَا تَقُولِين، وذَلكَ العَمَلُ الشَّاق؟ إنَّمَا هُوَ مِنْ أجلِ أنْ لاَ تَكُونَ هُنَاكَ فِي العَالَمِ فَتَاةٌ سَوْدَاءُ تَخْجَلُ بِلَوْنِهَا، وَتَجِدُ فِيهِ عَائِقًا فِي سَبِيلِ تَحقِيقِ أمَانِي قَلْبِهَا.

(موسيقى)

كريستوف: لأجْلِ القَلْعَةِ لاَبُدَّ مِنَ العَمَلِ أكْثَر، وَبِسُرْعَةٍ أكْبَر. لاَبُدَّ أنْ نَتَمَكَّنَ مِنَ الاسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ قُوَى البَلَد، وَأقُولُ كُلَّ القُوَى، قُوَى النِّسَاءِ مِثْلَ قُوَى الأطفَال.

فاستي: الأطفَال؟!

كريستوف: نَعم، الأطفَال، إنَّهُ مُستَقْبَلُهُمُ الَّذي نَبْنِيه، السُّورُ الَّذي بِدُونِه يُمْكِنُ لِلصُّقُورِ أنْ تَستَبِيحَ حِمَانَا، إنَّهُ مُستَنَدُ الشَّجَرةِ الغَضَّة، المُتَفَتِّحَةِ حَدِيثًا. وَعلَيْه، فَلْيَمْضِ الجَمِيعُ إِلَى العَمَل، إلَى الخِدمَة، لِنَقْلِ الأحجار. عَشْرةُ أحْجَارٍ فِي اليَوْمِ لِلمَرْأة، إنَّ ذَلِكَ لَنْ يَقْتُلَهُن، وَمِنْ حَجَرَيْنِ إلَى خَمسةِ أحجَارٍ لِلطِّفل، على حسب سنه ... أين بِريزو؟

بريزو: هَا أنَا يَا مَوْلاَي.

كريستوف: إنَّنِي أُكَلِّفُكَ يَا بْرِيزُو بِإنْهَاءِ قَضِيَّة " بَازَان". لَقَدْ

جَعَلْتُهُ "كونت" على "مون رُوي"، وَأعْطَيْتُهُ "دو شابّيل" مقرًّا، وَقَدْ بَلَغَني أَنَّهُ يَأمُرُ بِجَلْد الفَلاّحين. يا لَلشَّيْطان، لَقَدْ وَضَعْتُ تَحْتَ تَصَرُّفه عُمّالا، وَلَمْ أُعْطه عَبيدًا. أرْسِلْ على عَجَلٍ فَصيلاً مِنَ الحَرَسِ المَلَكي إلَى هُنَاك، لِيُقَيِّدُوا المُسَيِّرِ الجَلاَّدِ إلَى شَجَرةٍ فِي السَّاحَةِ العَامَّة، وَأمَامَ جُمُوعِ الشَّعْب، وليقطّع بالسيف عضوا عضوا. أما بخصوص بَازَان، فَابْعَثْ لَهُ بِكِتَابٍ لِيَأْتِيَني هُنَا فِي الْغَد، فَسَوْفَ لَنْ نَستَغْنيَ أبَدًا عَنْ أيْدٍ عَاملَة إضَافيَة فِي القَلْعَة. لَقَدْ آنَ الأَوَانُ لِكَيْ نُعيدَ هَؤُلاَءِ الزُّنُوجِ إلَى رُشْدِهِم، هَؤُلاَءِ الّذينَ يَعتَقِدُونَ أنَّ الثَّوْرَةَ تَتَمَثَّلُ فِي أخْذِ أمَاكِن البيض، والاسْتِمْرَارِ مِنْ نَفْسِ المَوْقِعِ وَالمَكَان، فِي سُلُوكِ مَسْلَكِ الرَّجُلِ الأبْيَض.

عَلَيْكَ أيْضًا يَا بْرِيزُو أنْ تَبْعَثَ بِكَلمة، أَقْصدُ كَلمَةً حَازمَة، إلَى مُديرِ مَزرَعَةِ الأمهر فِي مَرْعَى "بْرونز"، تَقُولُ فِيهَا لـ "المُضْحِك سُقراط"، حيث أنَّهُ يُسَمَّى هَكذَا، بِأنَّني لاَ أمْزَحُ أبَدًا. فَقَد كَتَبَ إلَيَّ يُخبِرُني أنَّ مُهْرًا مِنْ أمهري الأنكليزيَّة قَدْ مَات، فَأَعْلِمْهُ لآخِرِ مَرَّةٍ بِأنَّ سُقرَاط إنْسَان، إذَنْ يَمُوت، وَأنَّ خُيُولي الّتي هِيَ ملكي، لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الإنْسَان، وَأنَّها يُمْكِنُ أنْ تَستَبْدِلَ وَبَرَها وَلَكنَّهَا لاَ تَمُوت. وَعلَى هَذا الأسَاس فَإنَّني أُعْطيه مُهْلَةَ ثَلاثَة أشْهُرٍ لِيُعَوِّضَ لِي فِيهَا بَهيمَتِي، وَإلاَّ فَإنَّني سَآمُرُ بِقَطْعِ رَأسِهِ أمَامَ مُشْبَاتِه.

أمَّا أنْتَ يَا رِيشَار، فَلَدَيْنَا مَسألَةٌ سَنَحُلُّهَا مَعًا.

ريشار: أنَا، يَا صَاحِبَ الجَلالة؟

كريستوف: نعم، أنتَ يَا رِيشَار، وَسَأُذَكِّرُكَ بقصّة أنْتَ علَى علْم بِهَا. لَقَدْ كَانَ الإمبراطور ديسَالِينْ قَدْ اتَّخَذَ لَهُ مُعَلِّمًا لِلرَّقْص، فاخْتَرَع تَشْرِيفًا لَه رَقصَةَ القَنَّاص.

هيكونان: (يغني . بصوت مضخم):

الإمبراطور جاء،

الإمبراطور رقَص،

الإمبراطور ينام في سلام،

كريستوف: اخرس يا هِيكونان. . كَانَ مُعلِّمُ الرَّقْص اسمه "مانويل"، وهيكونان على حق في غنائه، فَعِنْدَمَا تَوَلَّيْتُ العَرْش أَمَرْتُ بِقَتْلِه، لأنَّهُ حَقَّرَ الأُمَّةَ بِجَعْلِهِ الرَّئِيسَ مَوْضُوعَ سُخْرِية.

ريشار: أعْتَرِفُ لَكَ يَا صَاحِبَ الجَلالة أنَّنِي لاَ أَرَى العَلاقَةَ بَيْنَ هَذا وَبَيْنِي.

هيكونان: يَقُولُ إنَّهُ لاَ يَرَى العَلاقَةَ يَا صَاحِبَ الجَلالَة. (يضحك).

كريستوف: اخرس يا هِيكونان. اسْمَعْ يَا رِيشَار، حَيْثُ أنَّهُ لاَبُدَّ أنْ تُوضَعَ لَكَ النِّقَاط علَى الحُرُوف... لَقَدْ سَلكْتَ فِي حَفْلَة الرَّقص بِالأمْس سُلُوكًا مُضحكا، فَهَلْ تَرَى العَلاقَةَ الآن؟ اعْلَمْ أنَّني لاَ أُحِبُّ أنْ تَنحَدرَ النَّبَالَةُ عِنْدِي إلَى التَّهْرِيج. إنَّهُ لاَ يُرقَصُ فِي بَلاَطِي رَقصَة "البَامْبُولا" يا سيد. هل فَهِمْتَ أخِيرًا؟.. سَتَرْحَلُ هَذا المَسَاءَ بِالذَّات إلَى "طومَاسِيكو" بِرُتبَةِ نَقِيب.

رِيشار: نَقِيب؟ وَإلَى هَذا المَركَزِ القَذِرِ عَلَى تُخُومِ المَمْلَكة؟

كريستوف: تَمامًا، فَهُوَ يُنَاسِبُك. وَيُمْكِنُكَ أنْ تَرقُصَ مَا شِئتَ هُنَاك علَى رَاحَتِك رَقصَةَ القَنَّاص.

هيكونان: (يغني)

لومبيري فيني أوي كوكو

دانسي لامبيري

كريستوف: مِنَ المُؤكّدِ أيُّهَا السَّادة، أنَّ الأُمُورَ تَقِفُ الآنَ علَى مُنْحَدَر، حَيْثُ أنَّهُ إذَا لم آخُذْ حَذَرِي مِنْهَا، فإنَّ الفَوْضَى سَتَدِبُّ فِي المَمْلَكَة.

ماكني: الفَوْضَى؟!

كريستوف: قُلتُ الـ..فـ...وضـى! وَمَنْ يُحِسُّ أنَّهُ مَزْكُومٌ فَلْيَتَمَخَّط.

آه، يَا لَها مِنْ مِهنَة، مِهْنَةَ تَروِيضِ هَذا الشَّعْب. هَا أنَا ذَا كَأنَّنِي مُعَلِّمُ صِبْيَان، أرفع السَّوْطَ فِي وَجْهِ أُمَّة مِنَ التَّلامِيذِ الكُسَالَى. أيُّهَا السَّادة، افْهَمُوا جَيِّدًا مَعنَى هَذِهِ العُقُوبَات، فَلَيْسَ أمَامَنا إلاّ أنْ نُحَطِّمَ كلَّ شَيْء، أوْ نُقيمَ كُلَّ شَيءٍ على قَدَمَيْه. أنْ نُحطِّم، فَهَذا أمْرٌ سَهْلٌ تَصوُّرُه، حَيْثُ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ مُلْقَى أرْضًا، أي العُرْيُ عارِيًا، فَتَتَسَاوَى، ورب الكون، كُلُّ الحُرِّيَات، وَتبْقَى الأرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَالنُّجومُ وَاللَّيلُ، وَنحنُ الزُّنُوج، بِمَعِيَّة الحرِيَة، وَالجُذُور، وَأشجَارِ مَوْزِ البَرَاري. هَذا تَصوُّر. وَإمَّا أنْ نُقيمَ كُلَّ شَيءٍ على قَدَمَيْه، وَحِينَئذٍ فَأنْتُمْ تَعْرِفُونَ مَا يَتْبَعُ ذَلكَ. ذَن، لابُدَّ أنْ نُسنَد، وأنْ نَرفَعَ أكثَرَ فَأكثَرَ نَحْوَ الأعلَى، أكْثَرَ فَأكثَرَ نَحْوَ الأبْعَد. ولَقَدْ اختَرْتُ أنَا، فَلابُدَّ أنْ تَحملُوا، وَلابُدَّ أنْ تَمْشُوا. لِهذَا يَا بْرِيلْ نَعَم، نَعم، فَإلَيْكَ أتَوجَّهُ بِالكَلامِ أيُّهَا الأسقُف، لأقُولَ لَكَ: إنَّنِي لَمْ أتَلقَّ بِارتِيَاحٍ كَبِير طَلَبَكَ الإذْنَ بِالعَوْدَة إلى فَرَنْسَا. لَقَدْ جَعَلْتُكَ " دوقًا " على "آنس"، وَبَنَيْتُ لَكَ أجْمَلَ أُسقُفيَّةٍ فِي العَالَمِ الجَدِيد، والآنَ تُفكِّرُ فِي أنْ تَتْرُكَنِي لِتَلتَحِقَ بِأُورُوبَا!

كورناي بريل: لكِنْ يَا صَاحِبَ الجَلالَة، عِشرُونَ عَامًا مِنَ الإقَامَةِ

فِي المَنَاطِقِ الاسْتِوَائِيةِ تَمْنَحُنِي الحَقَّ فِي الخُلُودِ إلَى الرَّاحَة.

كريستوف: الرَّاحَة، الرَّاحَة، إنَّهُمْ يُرَدِّدُونَ جَمِيعًا هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي أفْوَاهِهِم، حتَّى أنْتَ يَا بْرِيل، يَا رَفِيقِيَ القَدِيم!

كورناي بريل: لَدَيَّ فِي فَرنسا أمِّي العَجُوز، يا صَاحِبَ الجَلالَة.

كريستوف: وَلَدَيْنَا أيْضا الكَثِيرُ مِنَ العَمَل، أيُّهَا الأُسقُف.

كورنايبريل: إنَّ عَرشَكُمْ قَدْ أُمِّن، وَالمَمْلَكَةَ مُزدَهِرَة، وَأمَامَكَ قُسٌّ عَجُوزٌ اسْتَهْلَكَهُ العَمَلُ الإنْجِيلِي، وَلَمْ يَعُدْ قَادِرا علَى أيِّ شيء.

كريستوف: يا لَلشَيطان. إنَّهُ حِينَ نَبدَأُ عَمَلا، فَإنَّنَا لاَ نَتَخَلَّى عَنْهُ يَا بْرِيل، حتَّى وَلَوْ مِنْ أجْلِ الذَّهَابِ لِتَقْبِيلِ أُمٍّ عَجُوز.. وَمَعَ ذَلِكَ، فَسَوْفَ أُفَكِّرُ فِي الأمْر. وَفِي انْتِظَارِ ذَلك، فَإن لَدَيَّ عَملاً لَك.. هِيكونان، هل حضر الفَلاَّحُونَ الشُّبَّان؟

هيكونان: والشابَّات أيضا، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: أَدْخِلْ هَذِهِ الحُثَالَة.

هيكونان: هيَّا، ادخُلُوا، وَحَيُّوا جَلاَلَةَ المَلِك.

الفلاحون: (في صوت واحد) يَحيَ المَلك كريستوف، يَحيَ المَلِك

كريستوف..يحي..

كريستوف: كفى، كفى.. لَيْسَ لَدَيَّ وَقتٌ لِسَمَاعِ هَذَا النَّهِيق.. لَقَدْ بَلَغَتْنِي عَنكُمْ أخبَارٌ لاَ تُشَرِّفُكُم، وَالتَّقَارِيرُ الَّتِي تَصِلُنِي تُبَيِّنُ أنَّكُمْ غَيْرُ مُتَزَوِّجِين، وأنَّكُمْ تُضَايِقُونَ النِّسَاءَ أثْنَاءَ قِيَّامِهِنَّ بِأعْمَالِهِن.

هيكونان: نَعم يَا صَاحِبَ الجَلالة، هَؤلاَءِ السَّادةُ يَجْرُونَ ذَاتَ اليَمِين، وَيَجْرُونَ ذَاتَ الشِّمَالِ بلاَ مُوجب وَلا حَقّ. إنَّهُمْ زُناةٌ يا صاحب الجلالة. هذا فظيع. إنَّهُم زُناةٌ.

كريستوف: مَفهُوم، مِثل مَا تَقُول: متآمرين على النظام في مملكتنا. وإذن فَلاَ بُدَّ أنْ يَنْتَهِيَ هَذا. إنَّ دَوْلَتَنا فِي حَاجَةٍ إلَى بَيْتٍ مُستَقِر، وَلاَ يُمكِنُ أنْ تَكُونَ هُنَاكَ دَوْلَةٌ مُستَقِرَّةٌ بلا أُسْرَةٍ مُستَقِرَّة، ولا تَكُونُ هُناكَ أُسرَةٌ مُستَقِرَّةٌ بِدُونِ امْرَأةٍ مُستَقِرَّة. إنَّنِي لاَ أُرِيدُ أنْ يَكُونَ رَعَايَا مَمْلَكَتِي علَى هَذَا النَّحو، كَالْحَيَوَانَاتِ المُتَوَحِّشَة. وَبِنَاءً علَى هَذا، فَقَدْ قَرَّرْتُ أنْ تَتَزَوَّجُوا فَوْرًا. هِيكونان، إنني أكلِّفك بالحفاظ على الأخلاق العامة.

هيكونان: ..بِالأخلاقِ العامَّة؟ أنَا؟ شكرا يا صاحب الجلالة، فَحَيْثُ أنَّهُ أَمْر آتٍ مِنْ مَولاَي، فلاَ شَيْءَ يُمكِنُ أنْ يُؤثِّرَ فِي نَفْسِي مِثْلَ هَذا الإكبَارِ لِخُلُقِي، لِنَقَائِي، لأدَبِي، لِفَضِيلَتِي، لِـ...

كريستوف: نعم، نعم، يكفي هذا.

هيكونان: أيها السيدات والسادة، إنَّ المَلِك، انْطِلاقًا مِنْ عِنَايَتِهِ الأبَوِيَّة، قَدْ قَرَّرَ أنْ يَعْفِيَكُمْ مِنْ مَشَقَّةِ الجرْيِ لاخْتِيَارِ شَرِيكٍ أو شَرِيكَة. وَعَلَيْه، يَا أبْنَائِي، فَكُلُّكُمْ هُنا، وَكُلُّكُنَّ هُنا، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ وَاحِدُهَا، وَالعَكسُ بِالعَكْس. لِنَرَى أنْت ألا تُنَاسِبُك هَذِه؟ نعم، أليس كذلك؟ هِي سَمِينَةٌ بَعْضَ الشَّيْء، ولَكِنَّ النِّسَاءَ السَّمِينَاتِ هُنَّ الأفْضَل. هِيَ لَك. هَل رَضِيت بِها؟

الفلاح الأول: لَقَدْ رَضِيت.

هيكونان: وَأنتِ هل رضيتِ بِهِ؟

الفلاحة: أنَا رَاضِيَةٌ بِه.

هيكونان: انْتَهَيْنَا. ولَكَ أنْتَ هَذِهِ النَّحِيلَة. مُوافق؟

الفلاح الثاني: موافق.

هيكونان: حَسَن، يُوجَدُ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ الأذْوَاق.. وَأنْت، يَبْدُو لِي أنَّ لَكَ بِنْيَةً هِرَقْلِيَّة.. وَيَبْدُو لِي أنَّ هَذِه تَتَمَتَّعُ بِصُلْبٍ قَوِي. الوَيْلُ لَك، نَعم، إنَّ لَهَا صُلْبًا تَستَطِيعُ أنْ تَقْذِفَ بِهِ فِيلاً فِي الهَوَاء، وَإذن، مَاذَا تنتظر؟ خذها.

الفلاح الثالث: شُكرا لمولانا.. هيَّا بِنَا، يا إمْرَأة.

هيكونان والآن أيُّهَا السَّادَة، وَأيَّتُهَا السَّيِّدات، تفضلوا، اخدُمُوا

أنْفُسَكُمْ بِأنفُسِكُم، فَلِكُلِّ رجلٍ قِيَاسُها، لِيَخْتَرْ كُلُّ وَاحد وَاحدَةً، وَكُلُّ وَاحدَة وَاحدا. يا صاحبَ الجلالة، إنَّ امْرَأةً كَهَذه تُعَدُّ ثَرْوة، إذْ يُمْكِنُ لَهَا أنْ تُنْجِبَ كَتِيبَةً بِأكْمَلِهَا..أيُّهَا السَّادَة وَالسَّيِّدات، إنَّ الزِّرَاعَةَ فِي حَاجَة إلَى سَوَاعد، وإنَّ الدَّوْلَةَ فِي حَاجَة إلَى جُنُود، لِذَلكَ أقُولُ لَكُم: بِالرِّفاهِ وَالبَنِين، وطَابَ مَسَاؤُكُم.

كريستوف: امْنَحْهُمْ بَرَكَاتِكَ أيُّهَا الأسْقُف.

الأسقف بريل: لِيُبَارِكَكُمُ الرَّبُّ أيُّهَا الأبْنَاء.

كريستوف: ألاَ تَرَى أنَّنَا مَازِلْنَا فِي حَاجَة إلَيْكَ يَا بْريل؟ ألاَ تُرَاهِنُنِي علَى أنَّهُ لمْ يَسْبِق لَكَ فِي حَيَاتِكَ أنْ عَقَدْتَ زَوَاجًا أعْظَمَ مِنْ هَذا، هَه؟

فاستي: كتاب من مَلِكِ فَرَنْسَا، يَا صَاحِبَ الجَلالة.

كريستوف: حسن..، هِيكونَان، اصرِف عَنَّا هَذَا السُّوق، حَتَّى نَتَفَرَّغَ لِشُؤُونِ الدَّوْلَة.

هيكونان: فِي الحِين، يا مَولاَي، (للفلاحين) هَيَّا، حَيُّوا وَانْصَرِفُوا.

الفلاحون: يحي المَلِك كريستوف. يَحْيَ المَلِك كريستوف.

كريستوف: والآن يَا فَاسْتِي، اقْرَأ عَلَيْنَا كتاب مَلِكِ فَرنسا.

فاستي: (يقرأ) إلَى السَّيد الجنرال كريستوف، قَائِدِ المُقَاطَعَةِ الشَّمَالِيَّةِ لِـ "سَان دومِينِيك".

كريستوف: فاستي، لاَ يُمْكِنُ إلاَّ أنْ يَكُونَ خَطأ فِي التَّحْرِيرِ. كَيْفَ تُسَمُّونَهَا: زَلـ.. زَلَلْ..

فاستي: زَلَّة، يَا صَاحِبَ الجَلالة، زَلَّةُ قلم.

كريستوف: هَذا حَق، نَعم، إنَّها زَلَّةٌ أفْلَتَتْ مِنْ كَاتِب الشُّؤُونِ الخَارِجيَّةِ لابْنِ عَمِّي، مَلِكِ فَرنْسا. لاَ عَلَيْنَا، فَالمَغفرَةُ تَتَّسِعُ لِكُلِّ الخَطَايَا. إنَّ هَذا لَنْ يَمْنَعَنَا، وَحَقِّ الشَّيْطَان، مِنَ النَّظَرِ فِي أسَاسِ مَا يُسَمِّيهِ ابْنُ عَمِّي "مَسْألَةَ سَان دُومِينْك" أَدْخِلُوا السَّيِّد فَرَانْكُو دِي مِيدِينَا.

فرانكو دي ميدينا: حَيْثُ أنَّنِي سُرِرْتُ بِمَا لاَحَظْتُهُ مِنَ اسْتِتْبَابِ النِّظَامِ فِي هَذا الجُزْءِ مِنَ الجَزِيرَةِ، يَطِيبُ لِي أنْ أحَيِّي الحِكْمَةَ الكَبِيرَةَ، وَالعَقلَ السَّامِي الرَّصِين، الَّذِي سَيَّرَهُ بِمِثلِ هَذِهِ البَرَاعةِ، وَهذا الحَزْم.

كريستوف: حِينَمَا يُتَوَجَّهُ بِالحَدِيثِ إلَيَّ، يَا سَيِّد فَرانْكُو دِي مِيدِينَا، فَإنَّنِي أُخَاطَبُ بِـ "يَا مَوْلاَيْ"، و"يا صاحب الجلالة". لِنَقُلْ إنَّه تقْلِيدٌ محلِّي، حيث ينبغي على الضَّيف العابر، إن لم يفعله من باب الَّلياقة، فَلْيَفْعَله على الأقلِّ من باب ما جرَى

عليه العُرف. ولكنَّ هذا التَّوضيح لا ينبغي أن يمنعك من طرح أساس ما تسمِّيه "مسألة سان دومِينك".

فرانكودي ميدينا: تَمَامًا، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: حَبَّذَا أن تَقُولَ هَكذا "يا صَاحِبَ الجَلالَة"..لَقَدْ بَدَأتَ تَتَأقْلَمُ مَعَ هَايْتِي. هَذا جَمِيل، لَقَدْ فَهِمْتُ أنَا، وَبَقِيَ عَلَيْكَ أنْ تُفْهِمَ هَؤُلاءِ السَّادة. أيُّهَا السَّادة إنَّكُمْ عَبِيد، أتَسْمَعُون؟ إنَّ هذَا قَدْ جَاءَ بالحرف الوَاحِدِ في الكِتَابِ الَّذِي سَلَّمَنِي إيَاهُ السَّيِّد فرانكو دي مِيدِينَا مِنْ مَوْلاهُ المَلِك، أتسمعون؟ "إنَّكُمْ عَبِيدٌ مُتَمَرِّدُون". أنْتَ يَا مَاكْنِي، دُوقْ بْلِيزَانْس، وَأنتَ يَا كِيرْيِي، دُوقْ لاَفَانْسِي وَأنْتَ يَا بْرِيل، دُوقْ آنْس، وَأنْتَ يَا تْرُوبُونْ بُون، وَأنتَ يَا لِيمُونَاد، يَا قَائِدَ جُيُوشِ المَلِكِ بِالنِّيَابَة، وَفَارِسَ الوِسَامِ المَلَكِي، وَالوِسَامِ العَسْكَرِي، لـ"سان هُنْرِي"، وَكَاتِبَ الدَّوْلة، وَوَزِيرَ الشُّؤُونِ الخَارِجِيَّة. أتَسْمَعُون؟ إنَّكُمْ عَبِيدٌ آبِقُون، وَوَضْعِيَّةُ مَلِكِكُمْ هِيَ وَضْعِيَةٌ غَيْرُ قَارَّة. السَّافِل، النَّذْل، مَلِك يَعْرِض عَلَيَّ أنَا، هذا. ملك! ملك!

(فجأة، بهدوء شديد) عَلَى العُمُوم يَا سَيِّدْ فرانكُو دي مِيدِينَا، إنَّ مَا تَعْرِضُهُ عَلَيَّ اسْمُهُ صَفْقَة، صَفقةٌ على حِسَابِ شَعْبِي، لِيَعُودَ هَذَا الشَّعْبُ إلَى قُيُوده، وَيَهْجُرَ جَيْشُنَا المَاجِدُ سِلاحَهُ لِيَخْضَعَ لِلسَّوْط، تُزَيِّنُ مَشَاعِلَ النَّصْرِ الَّتِي حَقَّقَهَا في سَاحَاتِ القِتَالِ عَذابَه، لأتَنَعَّمَ أنَا عِنْدَ أعْتَابِ مَلِيكِكَ فِي حُلَّةِ

وَصيف مُطرَّزة الأكْتَاف. في الحَقيقَة أيُّهَا السَّيِّد، لَوْلاَ أنَّكَ فِي بَلَدٍ مُتَحَضِّر، وَتَحْتَمِي بِالحَصَانَةِ الدِّبْلُومَاسِيَّة...

فاستي، إنني أسْمَحُ لنَفْسي بتَذْكير صَاحِب الجَلاَلَة بِمَا لاَ يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ قَدْ فَاتَهُ، وَهُوَ أنَّ مَبْعُوثَ مَلِكِ فَرَنْسا، عَمِيلَ مَلِكِ فَرَنْسا، بِاعْتِبَارِهِ مِنْ مَوَالِيدِ القِسْمِ الإسْبَانِي مِنْ سَانْ دُومِينْك، الَّتِي هِيَ الآنَ مُقَاطَعَةٌ مِنْ هَايْتِي، يُعَدُّ مُواطِنًا هَايْتِيًا كَامِلَ الحُقُوق، وَبِنَاءً على ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ رَعَايَا صَاحِبِ الجَلاَلَة.

كريستوف: يَا لَلسَّمَاء، شُكرا يا فَاسْتي، شُكرا.. أرَى أنَّكَ مَا خُلقْتَ إلاَّ لِتَفْهَمَني وَتَخْدُمَني.. في الانْتِظَار، وَمِنْ أجْلِ تَسْوِيَة "أسَاس مسألة سَانْ دُومينْك"، أبْلِغْ فَرَنْسَا أنَّنَا، بِاعْتِبَارِنَا أحْرَارًا في حَقِّنَا، وَمُسْتَقِلِّين فِي أفْعَالِنَا، فَإنَّنَا لَنْ نَتَخَلَّى أبَدًا عَنْ هَذِهِ المَزَايَا، كَمَا أنَّنَا لَنْ نَتْرُكَ أبَدًا البِنَاءَ الَّذِي شَيَّدْنَاهُ بِأيْدِينَا، وَخَلَطْنَا إسْمَنْتَهُ بِدِمَائِنَا يَنْهَار.

فرانكودي ميدينا، يَا صَاحِبَ الجَلاَلَة، افْهَمْنِي جَيِّدًا، لَقَدْ جِئْتُ هُنَا بِغُصْنِ الزَّيْتُون.

كريستوف، إنَّكَ تُذَكِّرُنِي بِطَرِيقَةٍ جِدُّ مُلاَئِمَةٍ يَا سَيِّد فرانكو دِي مِيدِينَا، أيْنَ بْرِيزُو؟

بريزو ، هَا أنَا ذَا يَا صَاحِبَ الجَلاَلَة.

كريستوف، بْرِيزُو، مُرْ بِقَرْعِ الطُّبُول، أعْلِمِ الشَّعْب، وَأنْتَ

يَابْرِيل، نَحنُ فِي حَاجَةٍ إلَيْك. إنَّهُ جَميلٌ فِي زَيِّ الخَائِن. إنَّ لِرُوحِه الحَقّ فِي الرَّاحَة، وَأنتَ مَنْ سَيُنْعِمُ عَلَيْه بِذلِك. وَحتَّى يَتَأكَّدَ بِعَيْنِه أنَّنَا نُنْعِمُ عَلَيْه، فإنَّ السَّيد فرانكو دِي مِيدِينا سَيَكُونُ فِي الوَقْتِ الَّذِي تُقِيمُ فِيهِ الصَّلَوَات، وَاقِفًا أمَامَ نَعْشِه، يَسْتَمِعُ إلَى صَلاةِ رَاحَةِ مَوْتِه، وَبَعْدَئذ، خُذْ حِذْرَك، فَهَؤُلاءِ السَّادَةُ رَقِيقُو المَشَاعِر، لاَ أُرِيدُ أنْ تُلَطِّخَ قَطْرَةُ دَمٍ وَاحِدَةٍ مِعْطَفَهُ. رِحْلَةٌ سَعِيدَةٌ يَا سَيِّد فرانكو دِي مِيدِينا.

هيكونان: يَا صَاحِبَ الجَلالَة، إنَّ مَجلِسَ الدَّوْلَةِ قَدْ حَضَر، وَكَذلِكَ الشَّعْب، وَيَنْتَظِرُونَ فِي حُرْقَةٍ مُخَاطَبَتَك.

كريستوف: ومَاذَا يُرِيدُ هَؤُلاءِ السَّادَة؟

هيكونان: أظُنُّ أنَّهُمْ جَاؤُوا لِيُقُولُوا لَك: إنَّنَا مَلَلْنَا مِنْ أكْلِ بَقْلَة لِسَانَ الخَرُوف، وَالمَانْكُو. يُرِيدُونَ الحَلْوَى وَالشُّوكُولاَطَة يَا صَاحَبَ الجَلالَة.

فاستي: أرِحْنَا مِنْ مِزَاحِكَ بَعْضَ الوَقْت، يَا هِيكونان.. لَكِنَّنِي أظُنُّ يَا صَاحبَ الجَلالَةِ أنَّهُ قَدْ أزُفَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي تَضَعُ فِيهَا فِكْرَتَكَ مَوْضِعَ التَّنْفِيذ، بِتَعْيِينِكَ مَنْ تُوكَلُ إلَيْهِ مُهِمَّةُ تَلَقِّي العَرَائِضِ وَالتَّظَلُّمَاتِ وَالشَّكَاوَى.

كريستوف: لا فائدة من ذلك يا فاستي، لن يكون هناك سوى راع واحد وقطيع واحد. أدخل هؤلاء السادة، سوف أستقبلهم.

(موسيقى)

كريستوف: أيُّها السَّادة، إنَّني مُرتَاحٌ لِرُؤيَةِ الأُمَّةِ مُجْتَمِعةً هُنا، مُجَسَّدَةً فِي شَخْصِ مُمَثِّليهَا، بِكُلِّ طَبَقَاتِها المُخْتَلِفةِ الَّتِي تُشَكِّلُ مِنْهَا. وَمَا أُرِيدُ أنْ أقُولَهُ لَكُمْ يُهِمُّ أيْضًا، وبِالتَّحْدِيد، كُلَّ الأُمَّة. إنَّ إنْذَارَ الحَرْبِ قَدْ وَلَّى، هَذا حَق، ولَكِنَّ مَشَاكِلَنَا وَمَهَامَّنا قَدْ بَرَزَتْ فِي زَمَنِ السِّلْمِ بِشَكْلٍ أكْثَرَ إلْحَاحًا، وَمَا أعْلِنُهُ لَكُمُ اليَوْمَ لَيْسَ تَسْلِيَة، لا، لَيْس تَسْلِيَة.

النَّاطِق باسم الفَلاحين: يَا صَاحبَ الجَلالة، إنَّ قَارِبًا يُمْكِنُ لَهُ أنْ يَصْمُدَ وَلَكِنْ لَيْسَ أمَامَ بَحْرٍ هَائِج، وَإنَّ شَجَرَةَ "سِيبا" يُمْكِنُ لَها أنْ تَصْمُدَ فِي وَجْهِ الرِّيحِ وَلَكِنْ لَيْسَ إلَى حَدِّ الإمْسَاكِ بِخِنَاقِه. إنَّ شَعْبَكَ قَدْ سَئِم.

كريستوف: أيُّها الشَّيْخ، إنَّ تَاجَ شَعْرِكَ الأبْيَضِ يَقْتَضِي التَّسَامُحَ مَعَك، وَلَكِنْ لاَ تَسْتَغِلَّ تَسَامُحَنَا أيُّها الوَالِد، إنَّهُ مَسْلَكٌ خَطِيرٌ هَذا الَّذِي تَسْلُكُه. وَأنْتُمْ يَا مَجْلِسَ الدَّوْلَة، مَاذا؟ ألاَ يُوجَدُ لَدَيْكُمْ تَأنِيبٌ صَغِيرٌ لِضَمَائِرِكُم؟

أحد مستشاري المجلس: يَا صَاحِبَ الجَلالة، إنَّ مَجْلِسَ الدَّوْلَةِ يَعِي كَوْنَهُ التُّرجُمَانَ الأَمِينَ لِلبَلَد، بِنَقْلِهِ لِجَلاَلَتِكُمْ مُسَاهَمَةَ إدَارَتِهِ فِي الصَّرَامَةِ العَدِيمَةِ النَّظِيرِ الَّتِي تَعَامَلْتَ بِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنِ القَضِيَّةِ الهَايْتِيَّة، وَعَنْ حُرِّيَتِنَا. وَاعتِمَادًا على مَظَاهِرَ لاَ لُبْسَ فِيهَا لِمَشَاعِرِ مُوَاطِنِينَا جميعهم، فَإنَّ إدَارَةَ المَجْلِسِ لَعَلَى يَقِينٍ بِأنَّ الأُمَّةَ سَتُكَافأُ علَى مَجْهُودِهَا الطَّوِيل، وَسَتَسْتَبْشِرُ بِالأَمَانِي العَذْبَةِ الَّتِي سَوْفَ تَستَمْتِعُ بِهَا أخِيراً كُلُّ طَبَقَاتِ مُجْتَمَعِنَا، فِي ظِلِّ ذِرَاعِكَ الْحَانِيَة، وَبِالرَّاحَةِ الَّتِي يَستَحِقُّهَا بِجَدَارَة، كِفَاحُهَا البُطُولِي، وَعَمَلُهَا المُتْقَن.

كريستوف: العَمَلُ المُتْقَنُ لِمَجْلِسِ الدَّوْلَة؟! لاَ عَلَيْنَا، لِنَغُضَّ

الطَّرْف... بَادِئَ ذِي بَدْء، سَأبْغَضُ انْتِصَارِي إنْ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إلَيْكُمْ مَعْنَاهُ الخُلُودُ للرَّاحَة. أعَلَى مَنْ يُوقِظُ حَجَرَكُمُ الأسْوَدَ أنْ يَضْرِبَ بِجَلاَءِ صَوْتَ الرِّجَالِ فِيكُم؟ والحَالُ أنَّنِي لَنْ أبرِّيءَ ذِمَّتَكُم، أتَفهَمُون؟ ألاَ أَخْبِرُونِي يَا مَجلِسَ الدَّوْلَة، يَا مَنْ يُفتَرَضُ أنَّكُمْ ذَاكِرةُ المَمْلَكَة، أخْبِرُونِي مَاذَا كَانَ فِي هَذا البَلَدِ قَبْلَ مَجِيءِ المَلِكِ كريستوف؟ وَمَاذا كانَ مَجلِسُ الدَّوْلَة؟

أعضاء مجلس الدولة: لمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَجْلِسُ دَوْلَة، يَا مَوْلانا.

كريستوف: لا، لا، لمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَجْلِسُ دَوْلَةٍ ولَكِنْ فَقَط كانَ هُنَاكَ مَجمُوعَةُ زُنُوجٍ منتوفو العُنُق، أعِيدُوا...

أعضاء مجلس الدولة: مَنْتُوفُو العُنُق، يَا مَوْلانا.

كريستوف: بَلْ أقَلُّ مِنْ هَذا، كَانُوا قَذَارَة، أتَفْهَمُون؟ قَذَارَة، وَلاَ شَيْءَ سِوَى ذَلك. حَسَنًا.. إنَّ قَضِيَّتَنَا أيُّها السَّادَة، هِيَ أنَّنَا فُقَرَاء، وَالأَمْرُ بِيَدِنَا لِكَيْ نَكُونَ أغْنِيَاء وَأنَّنَا جَوْعَى، وَأنَّ الأَرَاضِيَ

مَوْجُودَةٌ وَلاَ تَنْتَظِرُ إلاَّ أَيْدِينَا وَإِرَادَتَنَا، مِثْلَ بَاهُون وَفَالْيَار، ومونت أوركانيزي، الَّتِي تُعَدُّ احْتِيَاطِيًا طَيِّبًا لَمْ يُمَسّ تَقْرِيبًا، وَكَذَا لاَرْتِيبُونِيت، نَهْرُنَا الوَطَنِي، وَكَذَلِكَ رُوسِينُولْ لاَشِيكُوت، وَرُوسِينُول دِي دِين، وَرُوسِينُولْ دِي لاَكُون، الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ أَجْمَلَ حُقُولِ القُطنِ فِي العَالَمِ، وَهِيَ اليَوْمَ عِبَارَةٌ عَنْ هَشِيم. أَتَسْمَعُون؟ كُلُّ شَيْءٍ يَتَطلَّبُ إِعَادَةَ التَّرْتِيبِ وَالتَّرْكِيب، الأَرْض، وَالمَاءُ. وَشَقُّ الطُّرُق، وَاسْتِصْلاَحُ الأَرْض، وَالتَّحَكُّمُ فِي المَاء. أَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَهْرَ الأَرْتِيبُونِيت، نَهْرَنَا الْوَطَنِي، يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ مِنْهُ نِيلَ هَايْتِي؟ وَتَطْلُبُونَ الرَّاحَة؟ وَتَظُنُّونَ أَنَّهُ بِعَوْدَةِ السِّلْم، يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَسْتَرِيحَ عَلَى كُرْسِيِّهِ الهَزَّاز، وَأَنْ يُدَخِّنَ بَعْدَ نَوْمِ القَيْلُولَة، غُلْيُونَ "الكَاشِينبو"؟ إِنَّنَا فِي "راكة" أَتَدْرُونَ مَا الرَّاكة؟ إِنَّهَا ذَلِكَ الانهيار الضَّخْم، وَالطِّينُ الَّذِي لاَيَنْتَهِي انْجِرَافُه، مِنْ نَهْرِ الأَرْتِيبُونِيتْ تَحْدِيدًا، إِنَّنَا نَسِيرُ مَسِيرَتَنَا الكُبْرَى تَحْتَ المَطَرِ المُتَهَاطِل نَعم، إِنَّنَا نَخُوضُ فِي الوَحْل، وَحْلِ التَّارِيخ. وَالخُرُوجُ مِنْهُ يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ لِلزُّنُوجِ الحُرِّيَة. وَالوَيْلُ

لَكُمْ إذَا فَكَّرْتُمْ أنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيُمُدُّ لَكُمْ يَدَ المُسَاعَدَة. وَبِنَاءً عَلَيْه، فَلاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَلَل، أتَسْمَعُون؟ اِنْصَرِفُوا أيُّهَا السَّادَة.

(حركة انصراف).

انْتَظِرُوا دَقِيقَة. قُلتُ لَكُمْ اذْهَبُوا، لَكِنْ لَيْسَ عَلَى النَّحْو.. هَاتُوا لِهَؤُلاَءِ السَّادَة، أعْضَاء مَجْلِس الدَّوْلَةِ مجرفات وَفُؤوسًا. الفَأسُ عَلَى الكَتِفِ الأيْمَن، بِهِمَّة، بِهِمَّة، نَفِّذُوا، المِجْرَفَة وَالفَأس. إلَى الأمَام سِر واحد، اثنان، واحد، اثنان.

(يخرج أعضاء مجلس الدولة في هيئة غريبة، مسلحين بأدوات الزراعة)

فلاح: (مُهمهِما) الحَق، أنَّ عَمَّنَا طَيِّبٌ جِدًّا، إنَّهَا لَغَرِيبَةٌ حَقًّا فِكرَةُ الذَّهَابِ لِمُقَاوَمَةِ الرَّاكَة. الرَّاكَة لاَ تُقَاوَمُ ولَكِنْ يَسِيرُ النَّاسُ بِمُحَاذَاتِهَا. إنَّ هَذَا مَعْرُوفٌ جَيِّدًا. الرَّاكَة أُحْبُولَة، وَيَكْفِي أنْ تَتَجَنَّبَ الدَّبْقَ عَلى اليَمِينِ أوْ عَلَى الشِّمَالِ لِتَتَنَقَّلَ عَبْرَ النَّهْر، أوْ لِتَقْطَعَ النَّهْر. لاَبُدَّ يَا عَمَّنَا أنْ تَكُونَ عَارِفًا بِالأنْهَار.

كريستوف: مَاذَا تُهَمْهِمُ يَا أبَانَا الشَّيْخ؟ أسْرِع، ألاَ تَرَى أنّي زَوَّدْتُكَ بِالْيَدِ العَامِلَة.

(موسيقى)

كريستوف: بْرِيزُو.

بريزو: هَا أنَا ذَا يَا مَوْلاَي.

كريستوف: (يناجي نفسه)

كَلِمَاتٌ زَائِفَة،

شِفَاهٌ زَائِفَة،

وَالقَلْبُ مُزْدَوَج،

واللّسَانُ كَثِيرُ اللُّعَاب،

والعُنُق بِلاَ أوَد،

رِجَال؟! هَهْ..ظِلاَل،

مَا بَلاَطِي إلاّ مَسْرَحٌ مِنْ خَيَالِ الظّل،

غَيْرَ أنّي أقْرَأُ فِي اللّوْحِ الأَسْوَدِ كُلّ مَا هُوَ مَكْتُوب،

تَحْتَ جَمَاجِمِهِم السّمِيكَة.

لَكِن، أيْنَ بْرِيزُو؟

بريزو: رَهْنَ أوَامِرِك، يَا مَوْلاي.

كريستوف: آه.. بِخُصُوصِ بْرِيل.. لَقَدْ عَيّنْتُهُ أُسْقُفًا، لَكِنْ يَنْقُصُهُ التّعْيِينُ الشّرْعِيُّ الكَنَسِي وَكُنْت قَدْ كَلّفت "بِيلُوتِيي"، المَوْجُودُ فِي لُنْدُن وَهُوَ بِالمُنَاسَبَة، يُكَلّفُنِي ثَمَنًا بَاهِظًا مِنَ السُّكَرِ وَالقَهْوَة، كَلّفْتُهُ بِتَسْلِيمِ رِسَالَةٍ بِهَذَا الشّأنِ إلَى البَابَا، غَيْرَ أنّ الأبَ المُقَدّسَ لَمْ يُرِد ذلك. وَخُلاصَةُ القَوْلِ أنّ بْرِيل يُوجَدُ فِي وضْعِيّةٍ غَيْرِ قَانُونِيّة، وَهُوَ شَيْءٌ مُزْعِجٌ جِدًّا جِدًّا. فمَا رَأيُكَ فِي هَذَا يَا بْرِيزُو؟

بريزو: إنَّهُ شَيْءٌ مُزْعِجٌ جِدًّا جِدًّا، يَا مَوْلاي.

كريستوف: وَبِالنَّظَرِ إلَى هَذِهِ الوَضْعِيَّة، فَإِنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَتَسَاءَلَ النَّاسُ عَمَّا إذَا كَانَ بْرِيلْ أُسْقُفًا حَقًّا. أَلَيْسَ كَذلِكَ يَا بْرِيزو؟

بريزو: مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَتَسَاءَلَ النَّاسُ عَنْ ذَلِك، يَا صَاحِبَ الجَلالة.

كريستوف: لاَ أَهَمِّيَّةَ لِهَذَا. إنَّ تَعْيِينِي لَهُ يَعْدِلُ تَمَامًا مُبَارَكَةَ البَابَا لِتَعْيِينِه، لَكِنَّ المُزْعِجَ يَا بْرِيزو أَنَّ بْرِيلْ أَصْبَحَ عَجُوزًا مُخَرِّفًا. إنَّهُ يَكْتُبُ كَثِيرًا، وَيَتَكَلَّمُ كَثِيراً.. أَكْثَرَ مِمَّا تَطَلَّبُهُ مَصْلَحَةُ الدَّوْلة.

بريزو: إنَّنِي رَهْنُ أَوَامِرِك، يَا صَاحِبَ الجَلالة.

كريستوف: إنَّهُ عَجُوزٌ يَا بْرِيزو، وَرَفِيقٌ قَدِيم.

بريزو: رَفِيقٌ قَدِيم، يَا صَاحِبَ الجَلالة.

كريستوف: إنَّهُ يَتَكلَّمُ أكْثَرَ مِنَ اللاَّزِم، وَيَكْتُبُ كَثِيراً، وَلَكِنْ لاَ أُرِيدُ دَمًا، لا، لاَ أُرِيد، أُرِيدُ لَهُ مَيْتَةً لاَئِقَة، فِي سَرِيرِه. إنَّهُ عَجُوز، فَعَلَى رِسْلِك، عَلَى رِسْلِك. عَجِّلْ يَا بْرِيزو. (بسرعة أكثر فأكثر . وبلهجة أعلى فأعلى)

أعْطِ الأَوَامِرَ بِبِنَاءِ حِيطَانٍ عَلَى أبْوَابِ وَنَوَافِذِ الأُسْقُفِيَّة. كُلُّ المَخَارِجِ تُبْنَى بِلاَ اسْتِثْنَاء، وَلاَ تَتْرُكُوا أيَّةَ فُتْحَة، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ فُتْحَةً لِمُرُورِ قِطٍّ. انْصَرِف. إنَّنِي أعْطِي بِهَذَا لبْرِيل أجْمَلَ ضَرِيحٍ كَنَسِيٍّ فِي العَالَمِ الجَدِيد.

(موسيقى) (صوت الريح والمطر)

رئيس العمال: الهِمَّةُ يَا رِجَال، الهِمَّة، هَذِهِ قَلعَتُنَا تَرْتَفِعُ شَامِخَة، أُنْظُرُوا إلَى قَلْعَتِكُمْ، هَاهُوَ بِنَاؤُها يَرْتَفِعُ شَامِخًا، بِفَضْلِ سَوَاعِدِكُمُ القَوِيَّة، الهِمَّة، الهِمَّة حَتَّى نَنْتَهِي مِن بِنَائِهَا قَرِيبًا.

(يغني)

كُلُّ الصِّغَار، كُلُّ الكِبَار،

كُلُّ نَقَّالٍ يُدَار،

كُلُّ سَاطُورٍ قَدِيم،

كُلُّ ثَوْرٍ بِلاَ قُرُون،

كُلُّ زِنْجِيٍّ حَزُون،

مَاذَا؟ لاَ أَحَدَ يُرَدِّدُ مَعِي؟ ألاَ تُرِيدُونَ أنْ تَعْمَلُوا أمْ مَاذَا؟ صَدِّقُونِي، إنَّ مَا أَقُولُهُ هُوَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِكُم، أيْ نَعم.

عامل: (يغني وهو منهك)

يَحْتَاجُ هَذَا إلَى دَلِيل،

وَقَدْ عَزَمْتُ علَى الرَّحِيل،

عنْ كُوخِيَ الحقير لاَ أَبْغِي بَدِيل،

رئيس العمال: حَقًّا، إنَّهُ وَقْتُ غِنَاءِ الانْصِرَاف. إنَّ مَا هُوَ أعْظَمُ يُمْكِنُ أنْ يَسْقُطَ فِي أيَّةِ لَحْظَةٍ عَلَى رُؤُوسِنا، وَلِذلِكَ فَأنا أَرْثِي لِحَالِكَ يَا فَتَى.

العامل: (يغني في إنهاك)

قدْ عَزَمتُ علَى الرَّحِيل،

عَنْ كُوخِيَ الحقير لاَ أَبْغِي بَدِيلْ،

(صوت الريح والمطر يزداد شدة)

رئيس العمال: (وقد فوجئ بمقدم كريستوف) هَذَا المَلِكُ قَادِم، انْتَبِهُوا، يَا صَاحِبَ الجَلاَلَة، لاَبُدَّ مِنَ القَوْلِ أنَّنَا لَمْ نَعُدْ قَادِرِينَ عَلَى الاسْتِمْرَارِ فِي جَوٍّ مِثْلَ هَذَا. لَعَلَّهُ صَارَ مِنَ الضَّرُورِي أنْ نُفَكِّرَ فِي تَسْرِيحِ فِرَقِ العَمَل. إنَّهَا رِيحٌ تَقْلَعُ قُرُونَ الثِّيرانَ.

كريستوف: لَكِنَّهَا سَتُقَابِلُ ثِيرَانًا لاَ تَسْتَسْلِمُ لَهَا لِقَلْعِ قُرُونِها.

انْتَبِهُوا، سَأُرِيكُمْ كَيْفَ يَكُونُ عَمَلُ زِنْجِيٍّ لَدَيْه حَافِز. (يضرب بالفأس) هَكَذَا، هكَذا، هكَذَا.. أَرَأَيْتُم؟

العَامِلُ المُنْهَك:

مَا عُدْنَا نَأكُلُ مِنْ هَذَا الخُبْز،

مَا عَادَتْ تَخْدَعُنَا أَوْهَامُ العِز،

مَا عُدْنَا نَقْبَلُ أنْ نُنْهَك،

لعَيْنَيْ أيٍّ كَان،

مَا عُدْنَا نَقْبَلُ أنْ نَهْلِك،

مَا عُدْنَا نَقْبَلُ أنْ نَهْلِك،

كريستوف: لاَ أحِبُّ هَذا النَّوْعَ مِنَ القَوْل، فَشَأنُنَا شَأنُ عَمَلٍ لاَ شَأنُ هَلاَك، أتَفْهَمُون؟ إنَّمَا أُحِبُّ أنْ يُقَال:

إذَا كَانَ السَّيِّدُ لَئِيمًا،

فَالرَّبُّ كَانَ دَائِمًا رَحِيمًا،

وَهَايْتِي لَيْسَتْ إلاَّ لأهْلِهَا،

رئيس العمال: يَا صَاحِبَ الجَلالة، إنَّ الصُّعُوبَةَ تَتَمَثَّلُ فِي رَفْعِ القِطَعِ إلَى أعْلَى، فالمُرتقَى صَعْب وَزَلِج، وَيَبْلُغُ انْحِنَاؤُهُ إثْنَيْ عَشَرةَ دَرَجَةً فِي المِتْر، وَقَدْ وَضَعْتُ عَلَيْهِ فَرِيقًا مِنْ مئة رَجلٍ وَمَعَ ذَلك فَالنَّتِيجَةُ لاَ شَيْء.

كريستوف: أخرِجْ مِنَ الصُّفُوفِ خَمْسِين، فَالأَمْرُ علَى هَذَا النَّحْوِ يَكُونُ أفْضَل.

رئيس العمال: فَوْق، ارْفَع. فَوْق، ارْفَع.

عامل: لاَ تَغْسِلْ رَأسِي يَا بَابَا،

لا تَغْسِلِي رَأسِي يَا مَامَا،

مَادَامَ العَرَقُ سَيَغسِلُه،

مَادَامَ المَطرُ سَيَغسِلُه،

(تسوء الأحوال الجوية أكثر فأكثر، فيهطل المطر، ويقصف الرعد)

كريستوف: إنَّ مَنْ يُخَاطِبُكُمْ رَجُلٌ خَاضَ الحَرْب، وَهُوَ يُؤَكِّدُ لَكُمْ بِأَنَّهُ مَهْمَا كَانَ الحَالُ فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ مِنَ الانْتِقَالِ مِنْ رَبْوَةٍ إِلَى رَبْوَة، وَمِنْ دَغلٍ إلى دَغل، وَلِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أُقَدِّمَ لِشَعْبِي هَذا الاسْتِعْرَاضَ الحَجَرِيِّ الجَيِّد، ضِدَّ الجوَامِيس، هَذَا الكَلبَ الحَجَرِي الَّذي يَكْفِي مُجَرَّدُ النَّظَرِ إلَى شِدْقِهِ أنْ يَفُتَّ فِي عَضُدِ جَمْعِ الذِّئَاب.

هيكونان: فَإِذَا جَاءَ الفَرَنْسِيُّون، بِالرَّغمِ مِنْ هَذا، فَمَا عَسَاهُمْ يَتَلَقَّوْنَ على مَعَاطِفِهِم؟ حَبَّ الطَّمَاطِم؟ ثِمَارَ النَّارِنْج؟ السَّرَوَل؟ لا، ثُمَّ لا، سَيَتَلَقَّوْنَ كُورًا حَدِيدِيَّةً لَطِيفَةً على بُطُونِهِم، وَزَخَّاتِ

طَيِّبَةً مِنْ رَشَّاشِ بَابَا كريستُوف، وَنِيرانًا مِدْرَارَةً تَأتِيهِمْ بِلاَ حِسَابٍ علَى أعْجَازِهِمُ المُلَوَّنَةُ البَيْضَاء.

(فرقعة رعد، تعقبها انفجارات. يعم الاضطراب المشهد)

كريستوف: لَكِنْ مَا الأمْر؟ إنَّها صَاعِقَة. شَيْءٌ مِنَ الثَّبَاتِ يَا رِجَال، لَيْسَ لَدَيْنَا اليَوْمَ وَقْتٌ لِنَتَوَقَّفَ بِسَبَبِ مُفَرْقَعَاتٍ نَارِيَّةٍ. يَا رَئِيسَ العُمَّال، مُرْ بِدَقِّ الطُّبُول، دُقُّوا عَلَيْها وَانْفُخُوا، بِكُلِّ يَد، بِكُلِّ رِئَة، اضْرِبُوا على طَبْلِ "الفَاكْسِين" الكَبِير، لِمُخَاطَبَةِ الرَّعْدِ بِصَوْتِ المِدْفَع، سَنُحَدِّثُهُ بَدْءً مِنَ الآنَ حَاجِبًا لِحَاجِب، وَاضْرِبُوا علَى الصَّنْجِ لِلرَّدِّ علَى البَرْقِ بِالبَرْق، وأَخْرِجُوا مِنْ صَدَفِ الأفْوَاهِ غَضَبَ الأحْشَاءِ المَاحِقِ لِمُجَابَهَةِ العُنْفِ الأعْمَى، العُنْفِ الذِي لاَ ضَامِنَ لَهُ مَثْلَ صُدُورِنَا. اضْرِبُوا، بِحَيَوِيَّةٍ أكْثَر، هَيَّا، بِحَيَوِيَّةٍ أكْثَر، اضْرِبُوا علَى الطَّبْلِ الصَّغِيرِ لِجَلْدِ المَطَر، وأعْلِمُوا الغَيْمَةَ أنَّنَا آتُونَ لِتَحَدِّيهَا بِقُوَّة، مِنْ أجْلِ إجْلاَءِ وَجْهِ الشَّمْس.

(أثناء كلامه ، تدق مختلف أنواع الطبول التي يذكرها ، واحدة تلو الأخرى)

مساعد معسكر: يَا صَاحِبَ الجَلالة، لَقَدْ نَزَلَتِ الصَّاعِقَةُ علَى مَخْزَنِ البَارُود، وَتَهَدَّمَتْ بِنَايَةُ الخَزِينَة، وَدُفِنَ آمِرُ المَعَسْكَر، وَقِسْمٌ مِنَ المَعَسْكَرِ تَحْتَ الأنْقَاض.

كريستوف: تَشَجَّعْ يَا فَتَى، مَا هِيَ إلاَّ مَعْرَكَةٌ كَغَيْرِهَا مِنَ المَعَارِك، كَثَمْرَةِ الأنَانَاس، تَتَجَمَّعُ أوْرَاقُهَا ذَاتَ الأسْنَانِ المِنْشَارِيَّةِ حَوْلَ القَلْبِ تُقَاوِم، كَذَلِكَ مَلِكُ دَاهُومِيَا. يَا بُطرُس القِدِّيس، يَا بُطرُس القِدِّيس، أتُرِيدُ أنْ تُحَارِبَنَا؟

(موسيقى)

المزارع الأول: يَا سَيِّدْ بْيَارْ بَاسْيَانْس، أنَا أتَحَدَّثُ إلَيْكَ . أتَسْمَعُنِي؟

المزارع الثاني: نَعم، يَا سَيِّد جُوبِيتِير تَاكُو.

المزارع الأول: لقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي أنَّنَا اشْتَغَلْنَا حَتَّى الآنَ بِمَا فِيهِ الكِفَايَة، وَبِأنَّ جُرْعَةً مِنْ شَرَابٍ مُنعِشٍ لَنْ يَضُرَّ لنَا الحُنْجُرَةَ بِشَيْء.

المزارع الثاني: لقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِذَاتِ الحَدِيثِ يَا صَاحِبِي جُوبِيتِير، حتَّى أنَّنِي مُنْدَهِشٌ أنَّنَا إلَى الآنَ لمْ نَسْمَعْ دَقَّ النَّاقُوس.

المزارع الأول: نَاقُوسٌ أوْ لاَ نَاقُوس، فَإنَّنِي يَا سَيِّدْ بَاسْيَانْس، قَدْ قُلْتُ لِنَفْسِي بِشَأنِ هَذا النَّاقُوس، مِنْ أنَّ هُنَاكَ خَلَلاً فِي مَيْكَنَةِ هَذِهِ المَمْلَكَة.

المزارع الثاني: أحْيَانًا، يَا صَاحِبِي جُوبِيتِير، أتَسَاءَلُ أيْنَ

تَبْحَثُونَ عَنْ كُلِّ مَا تَجِدُون. يَنْبَغِي أنْ لاَ تَسْقُطَ الكَلِمَاتُ هَكَذَا فِي أُذُنِ أيِّ كَان.

المزارع الأول: يَا سَيد بِييرو بَاسْيَانس، أعْتَقِدُ أنَّ لِلْحَرَسِ المَلَكِي مَا يَشْغَلُهُمْ فِي هَذِهِ الأيَّامِ عَنْ حَشْرِ أُنُوفِهِمْ فِيمَا نَقُولُه، الحَرَسُ وَالمَلِكُ مَعًا، وكُلُّ مَلِكٍ عَصًا علَى شَاكلة كريستوف..

المزارع الثاني: هُنَاكَ تَحَرُّك. هُنَاكَ تَحَرُّك. هَلْ تَعْتَقِدُ أنْتَ بِحُرِّيَّتِهِم، وَبِالجُمْهُورِية، وَمَا يُشْبِهُ هَذِهِ المُوسِيقَى؟

المزارع الأول: لكي أصدقك القول يا صاحبي باسيانس، فإن هواي مع الأرض. إنني أعتقد في الأرض التي أخدمها بيدي، والتي لا يريد الملك الكبير أن يعطيها لنا.

المزارع الثاني: يبدو أنه سينتهي شيئا فشيئا إلى ذلك، فيبدأ بتوزيعها على حاملي السلاح، أو من هم في خدمة العلم، فيعطي مربعا للجندي وعشرين للعقيد.

المزارع الأول: مه، مه، أترانا لسنا الجيش نحن؟

المزارع الثاني:: إنني أتساءل أحيانا يا سيد جوبيتير، حين يقلب مزاجُك دماغَك الثخين، أين تذهب لاصطياد هذا الكلام اللاذع. جيش نحن أيضا، جيش نحن.

المزارع الأول: إننا نحن الجيش الذي يعاني يا سيد باسيانس، بل أكثر من هذا، فإننا كلنا عقداء جيش المعاناة. وأضيف لك أيضا أنه حين يفقد هذا الجيش صبره، يا صاحبي "صابر"، فإنه سيقصد القصر للحصول على الرتب.

المزارع الثاني:: صحيح.. كما ستذهب معهم هناك يا صاحبي، فمهما يكن، يا رفيقي جوبيتير، فقد تكون على حق، إذ أن هناك خللا ما في هذه المملكة.

(موسيقى)

(القصر الملكي. قاعة الاستقبالات والاحتفالات)

الشيخ العجوز: انظروا.. انظروا.. يا له من جمع بهي. يا له من جمع بهي. لا شيء يعدل إعجابي برؤية كل هؤلاء الزنوج من زنوج بلدنا وهم يلبسون معاطف من الحرير ويضعون غابات من الريش على رؤوسهم , زرقاء , وحمراء , وبيضاء .

هيكونان: تفكير صائب أيها الشيخ، فالأجدى أن تكون على رؤوسهم من أن تكون على أعجازهم , مثل جدودنا.

الشيخ العجوز: (مهتاجا) تعال يا مفترٍ على جنسنا , وعلى أخلاقنا , وعلى طباعنا .

هيكونان: تمالك نفسك , فما هي إلا أزمة فصاحة تستولي عليه في كل احتفال . تماما , يا شيخنا .. إننا نسمعك .

الشيخ العجوز: (مهتاجا أكثر فأكثر) وقل إننا لسنا أهلا للحرية , وأنتم يا محبي البشر في كل البقاع , أيها الغرباء عن الأحكام

المسبقة ,الذين يعرفون فينا نموذج المنشئ المشترك , انعموا برؤيتكم الأشياء التي كانت موضع إيثاركم,وهي تستجيب بكل هذا الزخم لأنظاركم الخيّرة.

هيكونان: ممتاز يا شيخنا , ممتاز , وإنني أقدر فيك على الأخص , كما تقدرون عندكم الوطنية , الراح المتمنطق , والنبيذ التفيهق .

شانلاط: جميل يا صديقي , وقد عبّرتُ عن هذا فيما مضى بلغة أكثر إلهاما .

(ينشد , وقد حمل الكاس في يده) :

فيا عدو حقوقنا المنتصرة , المختال ,

أُنبذ أخطاءك , ودع مخططاتك ,

ما جدوى سموم حقدٍ لا يعود عليك بالنفع ,

ما ذا تستطيعُ بعد الآن هجماتُك العاجزة

على الصخرة الشامخة التي تحمل هذه الجزيرة ؟

لا جدوى من ثورة أعاصير الجنوب ضد نِبتُون

فنظرة من هذا الإله تحيل البحر ساكنا .

وعلى ذكر المخطط والسم ,قل لنا يا هيكونان, يا من يعلم كل شيء, ما هي أخبار بيتيون ؟

هيكونان: : وحق الإله , إن الرئيس مستقبلا ، بوايي , لفي صحة جيدة , بحيث أنه لم يقل لنا أنه في يوم من الأيام سيخلق لنا متاعب على الحدود .

شانلاط: يا للشيطان ! أسأله عن بيتيون فيجيبوني عن بوايي .

هيكونان: أنت تعرف الآنسة جُوتْ عشيقة بيتيون . حقا , لقد برهن الشاب بويي على أنه منافس شديد. فلكثرة ما حام حول الآنسة, دخل الحلبة بجرأة , وبداخلها صارع بقوة وبابتهاج 'وضرب' ليس بحد السيف ولكن بشباته , فحاز قصب السبق دون بيتيون . بيتيون الذي خسر كل شيء , وخرج مكلوما , منهكا, من هذه المعركة . ويتخذ الآن هيئة الفارس ذي الملامح الحزينة . أفهمت ؟

أضاع دِرْعه المدوَّرة ،

فبكى كبقرة .

(تدخل جماعة من رجال البلاط, وهم يواصلون حديثهم)

تروبون ترو: والله , لقد اعتدت على النزوات الملكية , لكن هذه الأخيرة أقوى ,على أية حال ,مما كنت أتوقع . أيصح أن

يدعي الشعب , الذي ما تزال رقبته متصلبة , وأكتافه مهيضة من القلعة التي لم ينته بناؤها إلا منذ وقت وجيز , ليقدم مساهمته الوطنية من أجل بناء قصر جديد, في مكان ما من جهة مرتفع "بيارو". وأي قصر ؟ ! قصر من قصور ألف ليلة وليلة.

ماكني: عليك أن تقول : ألف يوم ويوم , وفي إمكانك دوما أن تزيد عليها كما تعلم , لكن الأمر لا يتعلق إلا بـ 365 يوما . هذا ما هو مشروح في الجريدة , خذوا , واقرأوا : قصر سيجمع في مؤتمر , كل ملوك العالم الذين سيتفضلون بدفع مفرزة صغيرة من مراكبهم حتى هايتي . إنه باختصار : قصر ليوم واحد , من أجل مؤتمر وحداني .

فاستي: يا إلهي ! لِمَ لا ؟ سحب تهذي فوق رؤوسنا , وعند أقدامنا شهقة زبدٍ تقيأه عالَمان ' انظروا أين جعل الله موقعنا

، الظهر ملتصق بالهادي ، وأمامنا أوروبا وإفريقيا ، وإلى جانبينا من هنا وهناك الأمريكتان ، وفي ملتقى مد وجزر العالم ، وفي تقاطع كل مد وكل جزر ، هناك ـ ومن كل جهة من هذه الشرفة الهائلة المنظر ـ يوجد هذا الترسب المألوف الأثر للأطلسي.

ماكني: يا حضرة الأميرال الكبير ليس لديك سفينة بعدُ لتكوّن أسطولك، لكن اطمئن، فهايتي ذاتها سفينة كبيرة، وأقول ، بدقة أكثر إنها سفينة حربية كبيرة ، وكل طاقمها موجود في عنبرها .

هيكونان: إنذار ، كموا الأفواه ، الملك قادم .

(تمر بعض النسوة)

السيدة الأولى: إنك متأنقة يا عزيزتي . هذا حق ، ذوقك رفيع في اختيار الفساتين ، ولون جلبابك يسحر النظر .

السيدة الثانية : لا تحدثيني عن هذا , فقد ظننت وأنا أصعد , أنني سأموت من الخوف , إذ حين بلغت القصر , ماذا أرى ؟ بومة في وضح النهار , هذا النوع من الصقور الصغيرة الليلية التي تجلب النحس , فرحت أعدو , وأقع وأقوم , وراح أناس آخرون يجرون مثلي . لقد حدث هلع حقيقي , حتى أن أحد الحراس أطلق رصاصة .

السيدة الأولى: أنا في مثل هذه الحالات أتلو صلاة , ودائما نفس الصلاة . وقد أثبتت نجاعتها في كل مرة. أتدرين ما هي؟ ترددين ثلاث مرات بأقصى سرعة عبارة:

جانمين , جانمين , تيكي طا , بونكوه ،

جانمين , جانمين , تيكي طا , بونكوه ،

جانمين , جانمين , تيكي طا .

(صمت)

حاجب: الملك .

(يدخل الملك والملكة . يسبقهما خدم أفارقة يرتدون لباسهم القَبَلي)

كريستوف: أيها الأخلاء المخلصون . إنكم الأسرة الهايتية الكبيرة . وأي مكان أفضل للإنسان من أن يكون بين أهله ؟.

(ضحك . يغني كريستوف أغنية "كريتري" فيردد معه كل أفراد الحاشية)

أين أفضل مكان، أين أفضل مكان ؟

بين الأهل والخلان .

لكل راضون الكل راضون ،

القلب والعيون القلب والعيون ،

فلتحيوا مبتهجين فلتحيوا مبتهجين ,

كاسلافنا الميامين كاسلافنا الميامين.

(ضحك.. يقدم كريستوف خدمه الأفارقة لحاشيته):

ديليفرانس . لاكورون . فالانتان . جون . بيان ايمي.

أيتام، حرموا من الثديين الاثنين ،

نعم يا صديقتي الطيبة ،

أحمر ، أصفر ، أخضر،

بقدر ما كانت زوجة الأب شديدة عليهم ،

بقدر ما أردت أن أُلبِسهم ،

ألوانا زاهية من أفضالي،

إن خدمي من الماندينك، ومن الكونغوليين ،

قد اشتريتهم مجددا من النخاس ،

وخلّصتهم من الصّغار ،

وحتى يعلم كل واحد النعمة السابغة التي أخصهم بها ،

فقد أنشأت لأجلهم لقبا يعلن بما فيه الكفاية عن تلك النعمة ،

وهو : "الحلوى الملكية".

سيدة: لابد من الاعتراف بأن الحلوى الملكية فاتنة .

كريستوف: أيتها السيدة الرائعة، لا تتركي العواطف تتغلب عليك ، وأنتن أيضا . وينبغي أن تعلمن ذلك أنتن أكثر من الأخريات بأنّكنّ حلْوانَا الملكية ، وسحر لذائذ سلطاني .

(يدخل اللواء كيريي ، دوق دولافانسي وعقيلته)

في حين أنكِ يا جميلتي كيريي ، وما عُيِّنتِ إلا منذ وقت وجيز

تبدين أكثر جمالا من أي وقت مضى . وقد فوجئتْ من قبل ملكها وهي تخدعه مع لوائه المتزوج بها. (يضحك). عزيزي كيريي , لم يبق لي , من التخلص منك , إلا أن أضعك في الحجز بالقلعة .

كيريي: يا صاحب الجلالة, أنا مطمئن , فزوجتي فاضلة , وأنتم أكبر قليلا من تيار هواء , إلى حد أنني على يقين أن صغاري سيكونون بالتأكيد صغارا محاربين , لأجل خدمتك , وللدفاع عن التاج الملكي .

كريستوف: أحسنت الرد, ياحضرة الدوق. لا علينا , فلن نعكر الجو بمزحة صغيرة. يا رفيق الدرب, مازال أمامنا الشيء الكثير مما سنقوم به سويا , أليس صحيحا ؟ اعلم أن هناك تحركا من جهة "سان ـ مارك" , فلا بد من فتح العين من هذه الناحية.

كيريي: إنهم مخطئون ..ستنزل على رأسهم يدٌ غيرُ رخوة, يا صاحب الجلالة .

كريستوف: شكرا . يا رفيق الدرب . شكرا. وأنتما يا فاستي . ويا ماكني . يا صديقيَّ العزيزين ، ما الأخبار عندكما ؟ بماذا تتحدثان ؟

ماكني: أوه، لقد كنا نتحدث، فاستي وأنا، في.. في مسألة الأراضي، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: أرأيتم . هكذا إذن . فهناك مسألة أراض ؟ والملك يجهلها. ما أغربها هذه المسألة .

ماكني: إنها في نظري ٬ يا صاحب الجلالة . تطرح بشيء من الحدة . إلى درجة أن أعوان بيتيون قد ذهبوا يشيعون في كل مكان خبر أنه قرّر بيعَ مزارع الدولة للخواص .

كريستوف: أوه . ليبغ . ليبع . فمن يشتري ؟ ألوية الجيش؟ الأغنياء؟ الفلاحون ؟ فإذا كان المشترون هم "الضخام" فإنني سأرثي لحال الشعب . وإذا كانوا هم الفلاحين فسأرثي لحال

البلد . إنني أرى من هنا فوضى الدُّخن الصغير ، والبطاطس الحلوة في قائمة أطعمة التَّجزيء . لكن كفى حماقات ، يا ماكني . وإنني ألاحظ من جهة أخرى ويا ماكني ، أنه بالنسبة إلى لواء في الجيش مثلك ، فإنك تفكر أكثر مما ينبغي (في هيئة تهديد) ، بل إنك تفرط في التفكير . لكن هاهو أسقفنا الجديد ، الحبر "خوان دي ديُوس" . (تدخل جماعة أخرى من المدعوين ، ومن بينهم الأسقف الجديد ،

خوان دي ديوس كونزاليس ، الذي يتقدم نحو الملك.)

هيكونان : آوه، كم أنني لا أحب هذا، كم أنني لا أحب هذا.

كريستوف : هيكونان، ما الذي جعلك تنفر بهذا الشكل؟

هيكونان : لقد قلت أنني لا أحب أن أرى حَبرا يخدع بحبر. انظر إليه ، حين حلّ هنا توهمته طائرا من طيور "الكوليفيكو" ، لما كان عليه من ضمور البطن ، يا لَرداءة الحمَّص الإسباني. كان

بحق مالك الحزين ، وانظر إليه الآن، سمينا، منتفخا بما يحظى به من أهمية، وبالمربيات المنقوعة في شراب "الماراسكان". إنه يأتي للأكل حتى من أكف نسائنا.

سيدة: لا تذكر الحَبر بسوء يا سيد هيكونان، إنك لو كنت أكثر تدينا، وكنت تحضر القداس، لكنت تعرف أي صوت جهوري جميل لديه.

(خوان دي ديوس كونزاليس يتوجه بالخطاب إلى كريستوف): أسمح لنفسي بتذكير جلالتكم بأنه خلال خمسة عشر يوما سيكون عيد صعود العذراء ، فهل لي أن آمل ، ومعي جماهير الكاب ، في أن ترفع ، بحضوركم الملكي ، من مقام احتفالنا الذي هو من أهم احتفالات الكنيسة الرومانية ؟

كريستوف: في الكاب؟ إن الجو في هذا الفصل شديد الحرارة هناك.

خوان دي ديوس: يا صاحب الجلالة ، إن احتفالات بهذه الأهمية لا يمكن أن يقام بكل ما يليق برفعته إلا في كنيسة كاتدرائية ، وفي عاصمة.

كريستوف: أوه، إنه لا يفوتك أن الكاتدرائية تكون حيث تكون أنت ، والعاصمة تكون حيث أكون أنا.

خوان دي ديوس: بالتأكيد يا صاحب الجلالة، بالتأكيد. غير أنه لن تتوفر لنا العدة المرغوب فيها إلا في الكاب.

كريستوف: خوان دي ديوس، في الخامس عشر أغسطس سأكون في "ليموناد" ، ولن أكون في أي مكان آخر ، فإذا كانت "سيدتنا" ترغب في أن يُحتفل بها ، فما عليها إلا أن تتبعني هناك .

خوان دي ديوس: يا صاحب الجلالة، أتسمح لي بأن ألح عليك.

هيكونان: (مقاطعا له) ، أيها الأب ، أيها الأب ، على رسلك، على رسلك من فضلك ، لا تلح ، عجبا ، ألك رأس صلب من الحجر ؟

إذا كانت العذراء ذات وداد، فلتتبعنا إلى ليموناد . أتفهم هذا الكلام يا أستاذ ؟

(كنيسة "ليموناد". عيد صعود العذراء)

خوان دي ديوس: أيتها القديسة الوالدة ، صلي من أجلنا.

يا أم المسيح ،

أيتها الأم الإلهية النعمة.

كريستوف: هيرزولي، داهومي ،

صّليا من أجلنا.

خوان دي ديوس: أيتها الوردة المتصوفة،

يا برج داوود،

أيها البرج العاجي.

كريستوف: يا لوكو ، يا بيترو ، يا بريزي بيمبا،

ويا كل آلهة الصواعق والنار.

خوان دي ديوس: يا ملكة الملائكة ،

يا ملكة البطارقة ،

يا ملكة الأنبياء ،

يا ملكة الحواريين ،

كريستوف: يا زايدي ، يا بيداري ،

وكودونوزومي (وهذه هي الآلهة التي تقوم واقفة على فوهة مدافعنا لتسديدها) صلوا من أجلنا.

خوان دي ديوس: أيها الحَمل الذي تحمَّل أخطاء العالم من أجلنا،

استجب لنا، يا إلهنا.

فلنُصلِّ. اسمح لعبدك أن يمنحنا بهجة العقل والجسم ، بصورة مستمرة .

كريستوف: يا لَلبؤس، يا للبؤس. (كأنه يرى شبحا) أيتها

السيدات، لا تخفن. إن رجلا تحدى القديس بطرس، لا يخشى غرابا مبحوحا ،يحلق في شمسه. (يهدد شبحا غير مرئي) القديس "توسان" مات بخطايانا ،استجب لنا . القديس "ديسالين" مات في سجن في سجن "بون روج" مثل إله سقط في فخ . قيل الأَسوَد نار الأرض ، تقيأه الأخدود الرهيب، حين تحدى برعده الغش ذا الخمسة آلاف ذراع. يا لَلبؤس، يا لَبؤسنا..

(يظهر شبح كورناي بريل في أقصى الكنيسة)

خوان دي ديوس: فلنصل. اسمح لعبدك أن يمنحنا بهجة العقل والجسم بصورة مستمرة.

كريستوف: (مقاطعا القس) خوان دي ديوس، يا قس الكنيسة الرومانية، ما هو القداس الذي تؤديه الآن ؟

خوان دي ديوس: كورناي بريل . (يسقط)

كريستوف (يقعي بدوره ويجأر شاكيا): يا إله الرعد، من؟ من ذا الذي غنّى من أجلي لإله النعنة "باكولوباكا"؟

(في ليموناد ، غرفة الأقداس .كريستوف ممدد . عيناه مغمضتان،

يحيط به الطبيب والخدم. تسمع أصوات كورس قادمة من

بعيد)

يا ملكة السماوات،

وملكة الجحيم الأسود ،

حطمي السلاسل ،

واطفئي النيران ،

نيران الأعماق البشعة ، ونجِّنَا من غضبها.

ستيوارد : (الطبيب): سيخرج منها سالما يا سيدتي، نظرا لبنية جسمه غير العادية، غير أن نزاهتي تمنعني من أن أخفي عنك الحقيقة ، إذ أنه سيظل مشلولا طوال حياته. إنكِ تلحظين عليه الإرهاق، والتعب، والتوتر العصبي ، وحالة انفعال قوي أيضا..

كريستوف: (يفتح عينيه): مشلول ..يا ستيوارد . يبدو لي أنه ينبغي أن لا أعوّل، لا على علمك ، ولا على العلم.

ستيوارد: يا صاحب الجلالة ، لقد حققنا الكثير بعدُ، حين نجحنا في إيقاف القضاء المحتوم .. فبفضل السماء انزاح الآن كل خطر .

كريستوف: القضاء المحتوم ..القضاء المحتوم..إنه إفراط

غريب في استعمال الألفاظ. أيوجد قضاء أقسى مما نزل برجل خانته الطبيعة الحمقاء ، ثم ظل على قيد الحياة ؟ حياة من يحتفظ بالنَّفَس ؟ لست من البُله ، يا سيد ستيوارت، إلى درجة تصديق ما يرويه لي أفراد حاشيتي. إنني لست ملكا بفضل من الله ، ولا بإرادة شعبي ، ولكن بإرادة وفضل قبضتي . آه ،كم كان بودي لو كانت ضربة الجزار البارعة ، ساطور الموت ،البهيمة المصابة في مقتلها إصابة مباشرة .وأنتم، وأنتم، أنتم تتركون هذا الغش يستمر، هذا الاغتيال للقدر، وهذه المسالك لفعل الطبيعة. أنتم قتلة، قتلة، ومتواطئون مع القتلة، ذاك حقيقة أن تتركوا المستقبل يقتل .

(غناء كورس بعيد) :

يا نجمة البحار ،

والموجة المهذار ،

سكِّني الأمواج ،

واطردي المنون ،

واحملي سفيننا

لمرفإ السلام .

ستيوارد: كفوا عن تراتيلكم، بحق الرب، وعن أناشيد الجحيم

المقيم. أما بخصوص المزارعين الذين رأوا ملكا يهوي أمامهم، فانصحوهم بلجم حميرهم، وتكميم دجاجهم. والويل لبلدة ليموناد إن أنا سمعت نهيقا أو قوقأة.

ستيوارد: هذا حق، فجلالته في حاجة إلى الهدوء والراحة.

كريستوف: لا، أيها السادة، لا. اقتربوا مني فإنني أود أن أبلغكم أوامري. ما لكم؟ اقتربوا، إنني لن آكلكم، ياللشيطان، اسمعوا.

(الوزراء وأفراد الحاشية يقتربون من السرير)

حقا، لقد تحطمت ركبتاي ، وأصابتني عيون الحساد، لكن، اعلموا أن روحي معافاة لم تمس ، صلبة مثل قلعتنا.

إنه مصعوق ولكنه غير متصدع ،

إن كريستوف هو صورة القلعة ذاتها ،

وبناء عليه ، سأستمر ،

وستكونون أعضائي، حيث أن الطبيعة تأبى أن تبقيها علي.

إنني الرأس، وقد آليت على نفسي أن أنشئ الأمة.

أيوجد من بينكم من يرفض أن يغطي الجدران؟

أو يسند وقت الإعصار القبة والأقواس؟

إنني أنتظر منكم، وأطالبكم،

أيها السادة، إن مملكتنا ستستمر

بالطاعة كرباط، وبالعمل كمستوى.

ليعلم الجميع أن هذا يتطلب صلابة تقوم على قوتنا،

وعلى عبورنا للمستنقع ،

أما فيما يختص بالرب ،

فلكل إنسان حق ، ولكل شعب حق ،

أيتها الآلهة ، إنني لا أتضرع إليكم ،

ولكنني ألوح في وجوهكم بحرية شعبي ،

الشبيهة بمنقار العصفور صائد الذباب في جناح حدأة،
إنني أطالب لهذا الشعب بحقه،

وبقسطه من الحظ.

المشهد الرابع .

(بعد مرور عدة أسابيع. القصر الملكي، قاعة العرش)

هيكونان (يغني): دامبالاً زرع الذرة،

نعم ، زرع الذرة ،

لكن البهائم أتت عليها،

آه، الأمة في حال غير طيبة،

آه، الأمة في حال غير طيبة.

كريستوف: (وقد بدا عليه الكبر والعجز): هيكونان، يا مسكين، إن الأمم لا تكون في حال طيبة أبدا ، ولهذا فالملوك بدورهم ينبغي أن لايكونوا طيبين أكثر من اللازم .. على ذكر هذا يا بريزو، لقد أكدت بكل قوة، فيما يخص أشغال بناء برج القلعة، لحامية "سان مارك" أمر تأمين نقل مواد البناء عبر الجبل بصفة عينية ، ولا جدوى من انتظار ما تواضع الناس على تسميته بـ "الموسم الطيب"، فكل المواسم طيبة عندما يقرر الملك ذلك.

ريشار: يا صاحب الجلالة ، إن هناك ثلاثين فرسخا بين سان

مارك والكاب . إن سان مارك لا يتمتع بمزاج شديد الطيبة ، وان الرجال متعبون .

كريستوف: قل لي ، أتراهم يفكرون في عصياني ؟ متعبون ..جنود متعبون..إنني مشلول أيها السيد، ولكنني لست متعبا ، فماذا جرى لكم إذن ، جميعكم ؟ يمكنني القول أن ريحا من رياح العصيان تعبُر هذه المملكة .

ريشار: من العصيان ؟

كريستوف: من العصيان ، يا ريشار . (ريشار ينسحب)

المشهد الخامس

(ضباط قادمون ورائحون. حالة اضطراب وفزع)

كريستوف: ما الأمر؟ أي أخبار تحملون؟

الساعي الأول: إنها ليست سارة ، يا صاحب الجلالة .

كريستوف: إنني أطلب الأخبار ولا أطلب تعليقات على الأخبار . بريزو ، استدع لي ريشار من جديد، إنه لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرا ، ويمكن أن نحتاج إليه .

الساعي الأول: إن مدينة سان مارك التي هي الآن على وشك السقوط في يد قواتنا قد بعثت تستنجد بالجمهوريين ، وقد أرسى اللواء "بوايي" بسان مارك .

كريستوف: صاعقة تنزل على رأسه .لقد عرضت غصن الزيتون على أهل "بور أوبرانس" فرفضوه ، ولقد ظلت منطقة "الميريالي" لمدة خمس سنوات حدود سلام ، وهاهم يريدون أن يجعلوا منها حدود دماء . افعلوا ما يرحكم .. قلت إن بوايي قد دخل سان مارك ؟ من تحت ذقون ألوية جيشي ؟

(يدخل ساعي بريد ثان .)

الساعي الثاني: يا صاحب الجلالة، لقد التحق اللواءان

"رومان" و"كيريي" بصفوف المتمردين.

كريستوف: رومان! وكيريي! لواء! جيشي! الخنزيران، الصّلاّن المُقرّنان. رجالي الذين غمرتهم شرفا. انتبهوا أيها السادة. إن كريستوف نواة كبيرة، ومن يحاول أن يبتلع نواة كبيرة، عليه أن يكون على الأقل واثقا من كبر حلقه ..بريزو، بَلّغ ماكني أن يتولى القيادة.

هيكونان: إن "كاردو"، يا صاحب الجلالة، من أجود الأراضي في ناحية بور أوبرانس، وإذا كانت معلوماتي صحيحة ، فإن مجلس شيوخ بور أوبرانس قد وهبها مؤخرا لماكني. إن ماكني دائما محبا للأرض، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: بعر. كلهم بعر. يا لهذا البلد! يا له من كومة بعر. كيف لا يصاب منخر "يَهوَه" بالحُكة من كل هذا العفن المتبخر تحت الشمس ؟ ماكي ، كيريي ، رومان .على أية حال سنتجاوز أمرهم أيها السادة . أليس كذلك ؟ ثم إنه لا ينبغي أن نشتط في تقدير أمرهم. ليسوا إلا بعض كلابات تراخت فيها الفكان ، أو بعض أحجار تباعدت عن بعضها ، لكن تقبُّب الجدار سليم ، سليم ، أتسمعوني ؟ أدخلوا ريشار .

الساعي لثالث: صاحب الجلالة،ثارت الجماهير في الكاب،واستولت الجموع على مخزن السلاح.

كريستوف: والحامية العسكرية؟ وريشار؟

الساعي الثالث: لقد أشاع المشاغبون خبرا مفاده أن ريشار لن يقاوم حركة التمرد.

كريستوف: وأخيرا، أتدخلون ريشار؟

(يدخل ريشار)

كريستوف: أيها السيد، يا "كُونت" الشريط الشمالي، كنت أتساءل عما إن كنت ستأتي . يا للظرف السعيد. يبهجني حين أفكر أنك مازلت تخشاني . الكاب في حالة هيجان وثورة، وأنت ، حاكم المقاطعة ، لا تدري بشيء.

ريشار: يا صاحب الجلالة ، لا بد من تقدير الوضع بأنه في غاية الخطورة .

كريستوف: تقدير الوضع، تقدير الوضع. اغربْ عن وجهي أيها الخائن، بعيدا من هنا، لكن قبل ذهابك، أيها اللعين، اركع على ركبتيك، وقبّل يدي سيدك.

المشهد السادس

(في القصر الملكي، كريستوف مريضا وقد جلس تحت الفرندة على أريكة. إلى جانبه منظار مقرب يستطلع به الأفق بين الحين والآخر)

هيكونان (يغني):

واحد ، اثنان ، غصنان صغيران ،

على غصين وضع القدم ،

أية لعبة يلعبها الفتى الغرير؟

لعبة الديك المُسمّن يلعبها الصغير،

لعبة الديك، نصف الديك،

ألا ترى أنهم عشرون؟

إنه يحني رأسه على حجر،

إنه يطوي كفه على حجر،

من ها هنا القَرصة قد أتت.

كريستوف: ما هذه الأغنية البلهاء، يا هيكونان ؟

هيكونان: لقد حفظتها منذ زمان، من جهة "سانتو دومينكو" ، لكنني لن أقول لك إلا هذا ، يا صاحب الجلالة ، إذ لا بد لك من ظهر قوي حتى تحتمل تصعيد عيار النغمة .

تصعيد العيار،

تصعيد العيار،

مهراس بارد، مهراس حار،

لحم قديد مغ اللوبياء .

كريستوف: أما قلت: بذور طموحة لأرضكم الشحيحة، فرفعت منسوب الماء المطلوب بعشر شرطات ، ليكون المحصول متناسبا مع العرق. كان زمنا قاسيا ، ولست نادما على شيء .لقد عملت على غرس شيء ما في أرض جاحدة .

هيكونان: من الأرض تصّعّد ، أترى ؟ أعمدة من الدخان، وريح ، وصهيل أحصنة . إن ما يحرق إن هو إلا حقول الملك .

كريستوف: لقد أردت أن أقدم لهم جوعا للفعل، وحاجة للارتقاء.

هيكونان: الجوع؟ يا للفظاعة . أهو إذن تكليف بأشق الأعمال، ووعد بتغيير الحال، وبأكل الملوك. لا شيء يستطيع المقاومة، ما عدا رائحتهم القوية الزنخة وسط عطور الملك .

كريستوف: حطموا، حطموا، هدموا، فما خزّنت إلا لهم، ما خزنت إلا للريح والطمع، للأنقاض والتراب.

هيكونان: الشعوب تعيش ليومها، يا صاحب الجلالة.

كريستوف: لقد أردت أن أقتحم لغز هذا الشعب الذي يجر قدميه في الآخر.

هيكونان: لا تسير الشعوب إلا بأقدامها، يا صاحب الجلالة، بأقدامها الخفية.

كريستوف: لقد قطع الآخرون، شيئا فشيئا قرونا، فأين

خلاصنا نحن إن لم يكن سيرنا قفزات كبيرة من السنوات ، زفرات كبيرة من السنوات.

هيكونان: اسمع يا صاحب الجلالة، استنشق، شم، ففي أعالي الكاب هناك احتفال، وقدور المزارعين تنضج الطعام في العراء، تغطيها أوراق الموز.

كريستوف: إن صوتك لغريب يا هيكونان ،كل كلمة من كلماتك تضيق بواحدة من أنقاض أحلامي، لأنهم عرفوا الاختطاف ، والبصاق ، البصاق في الوجه. أردت أن أعطيهم وجها في العالمين، وأن أعلمهم كيف يبنون مساكنهم ، وكيف يجابهون.

هيكونان: وهذا قرع ، قرع على الطبول. إن جنودك لا يجابهون يا صاحب الجلالة. جنود الملك يطبّلون على "الماندوكومان".

كريستوف: (يصيخ بسمعه). والله إنك على حقك. الأوغاد، الأوغاد، إنهم يقرعون الماندوكومان.

خادم إفريقي: ماذا يعني هذا يا صاحب الجلالة؟

كريستوف: هذا يعني أنه قد حان الوقت لكي يذهب الملك العجوز لينام. لا إله ولا آلهة، لا شيء سوى الليل، ليل الشّم، ليل الخطم الضيق، ليل العبيد الآبقين، والملح الحامز للزنوج المقطوعي الأنفاس ، والكلب الذي يطاردهم . أيها الليل، أنت يا من تلغي الوجه والندبة في تدفق الليالي . الليل الوحيد الذي أعترف به ، لأنك خبز قرد "الباوبا" الكبيرة، شجرة الزمن.

قلب الليل المنبجس من صليبيات الأيام القاسية .

ليل العشب والجذور،

ليل الينابيع والعقرب

لن أترنح بعد الآن في لقائك.

إن هذا بالضبط، يا كونغو، ما عبر عنه مثل من بلدك ، من بلدنا ، ((كل سهم تكون على يقين أنه لن يخطئك، فانفخ له صدرك على الأقل، حتى يصيبك في الصميم)).

المشهد السابع

(عتمة ، وجو احتفالي مقلق لطقوس الفودو)

السيدة كريستوف: إني مريض، إني لا أقدر على القيام،

مشلول أنا لا أستطيع القيام،

يا إلهي الرحيم، اشفني،

يا إلهي الرحيم، اشفني،

يا إلهي، أعطني القوة لأقوم.

كريستوف: لكن الغابة الفتية ترمي بعصارتها دوما، وتحت النباتات المعرّشة ، والزّبد ، والذبابة الزرقاء، والحباحب المترددة ، لدفع مستحقاتها الكاملة. آه، يا ليت هذا الإعصار الذي يكتم على أنفاسي ، ويغلي في كبدي، لا يتمكن الآن من اجتياز حدود صدري الواهي. هاهو ذا الملك، فمن الذي يطيعه إذا كانت أعضاؤه تأبى أن تخدمه ؟ أما رأيت أحيانا يا كونغو

أشجارا على طول الطريق ، قوية ، رهيبة ، تحتمي جذوعها بدرع من الأشواك ، لكن القدم منها متآكلة ، من ثقب منزوع اللّحاء ، لا شيء سوى القدم التي تكون موضع رقابة من الفلاح المخاتل ، صواري عظيمة تكون بذلك آيلة إلى السقوط. آه، إنهم يرقبونني يا كونغو، كتلك الشجرة ذات الرجل المنزوعة اللحاء.

(صمت)

مُربَكٌ ،

مُربك بدم مائج ،

زبدٌ هائج ،

سبخةٌ غافية ،

عسلٌ نَكِدٌ لِدمي،

خبر ينتشر،

أنادي عليه،

ينادي علي،

وقلت قديما، مسيرة نحل مؤجج،

وقلت قديما، صهيل حصان عظيم،

صهيل دمي.

(يغني)

يا شمس شعِّي على "الأيبو لوكو"

وعلى "الأتيبون"،

على "الأيبو لوكو"

(يئن)

السيدة كريستوف، يا شمس، يا شمس،

لستُ أنا من هنا،

من إفريقيا أنا،

من جهة الشمس، يا أصدقائي.

كريستوف: يا إله أفريقيا ،

يا لواس،

يا حبل الدم المضمد،

يا أبانا أبوبو،

يا رباط الدم

إفريقيا يا سر قوّتي،

أبوبو،

(للوصيف الأفريقي) يا كونغو، أيها الذبابي المجازف في تجويف "داتورة" هندية. إنني دائما متعجب كيف أن جسما بهذا القدر من الهزال يستطيع أن يتحمل أعباء هذا القلب

النابض؟

إفريقيا ، في بوق قرنك الكبير ينفخ دمي،

يتمدد بحجم طائر ضخم.

لا تنفجر يا قفص صدري ،

ويا نبضي ، دقَّ طبلك .

بمنقاره يحطم طائر الطوقان ثمرة نخيل الرافيا .

يا طوقان ، أيها الطبَّال الكبير ،

أيها الديك ، إن الليل ينزف من حد ساطور صيحتك .

أحبيك يا ديك ، يا زفرة قاطعة ،

وطائر القاوند يلتقم راية الشعلة ، قطعة قطعة ،

وراية الشعلة تخترع ذاتها في الصباح الباكر لشمس نشوتي،

أحبيك يا قاوند، أيها الطبال الكبير،

أيها الديك الطبال ،

أيها الطوقان الطبال ،

أيها القاوند الطبال ،

أيها الطبال ، دمي المسموع ،

يا قلبي ، اضربوا طبولكم ،

يا أطفالي ، حين أموت ،

لن يكون للطبل الكبير صوت ،

وعليه ، فليطبل ، فليطبل الطبل الكبير ،

وليطبل لي جسدي ،

نهرا من الدم ،

إعصارا من الدم ومن الحياة ،

(ينهض ويخطو بعض الخطوات)

((بابا سوزي باديري))

شكرا يا لقبي الشجاع ،

(في هبّة قوية)

يا أصدقائي ، يا أنتم يا أصدقائي ، دقوا نفير التجمع ، تجمع كل الفرق ، كل الفرق ، حراسي ، فرساني، اسرجوا فرسي ، أتظنون أنني غير قادر على القتال؟ يكفي أن يُبرِز بابا

كريستوف قبعته المثلثة في أعلى الكاب، ليعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي.

(يظهر في الشرفة، فتأتيه هتافات الجنود، فيتوجه اليهم بالخطاب)

أيها الجنود، إنكم تعرفون مع من تختصمون، مع صعاليك. ماذا يمكن أن يحملوا هنا إن لم يحملوا الفوضى والتهاون والكسل، يقودهم شخص تافه، مبتغاه الوحيد أن يتمرغ على سرير بيتيون. إننا نحن ، قد بنينا نحن، أما هم فيهدمون. قلت صعاليك ؟ لا ، بل هم ديدان .إن الذي يترصدكم إنما هو شيء رخو الجسم، نهم الحلقوم، إنه جيش القناصة الليليين. إنهم قراضات خشب، كلهم قراضات خشب ، تلك حقيقتهم.

ألا تدفعون عن البناء الذي يؤويكم، عن الشجرة التي تحميكم، عن ملككم، جيش القراضات البائس؟ فاستي سيتولى القيادة.

(يتوجه إلى فاستي)، أيها الخلاسي الصغير، إنك لست زنجيا، إنك خلاسي، لكن مثل الأرض التي تحتفظ في ثناياها بآثار الهزات العنيفة، فإنك قد عرفت ..بل قد عشت في رائحة

شياط شعرك نفَس الصاعقة الجهنمي، أم لا ؟ في كتفيك، هنا، بين كتفيك، أنا على يقين من وجود ميسم الرق، الذي لا يرى، ولا يقبل الزوال، خلف الرمل، ما قايضت به القافلة. إنه ألوان العذاب وأهوال الموت القادمة من أبعد من مقدم القوافل، غثيانات، أليس كذلك ؟ آه، عميقة، كالأنهار، وضحكنا أيضا كالثور الأحمر الذي ينبثق أثناء عاصفة المهتاج الذي يرعى في السحب المتحركة. إذن ، فأنت زنجي، وعليه، فباسم الكارثة العظمى، وباسم قلبي الذي يعود بي صاعدا كل الحياة في شهقة القرف، فإني أُعمِّدك، أسميك، أكرِّسك زنجيا ..فهل تحس في نفسك، أيها الزنجي الصغير، الشجاعة للمشي في الدم ؟ من "ميلو" حتى "الكاب"، ومن الكاب حتى سان مارك ؟ إلى الأمام. (يسقط) يا للصاعقة، من ؟ من ؟

أي عدو خفي يخيم حول جدراني ، ويُسلِّط آلياته علي؟

(الملك يهلوس، فيظهر بويي مصحوبا بكوكبة بديعة من أركان حربه)

بويي: إن القضيب الحديدي الذي يحلو له أن يلوّح به فوق رؤوسكم سينكسر أخيرا بين يديه.. حتى أولئك الذين كانوا

مساعديه الأقربين يتخلون عنه الآن، ضائقين درعا من وضعهم الذي لم يجعل منهم إلا أوائل عبيده. أيها الجنود ، إن الانتقام الذي استيقظ من صدر الإله المخلّص قد انطلق يطارده. ياجنود الجمهورية ، إنكم أنتم أيضا جنود الله.

الجنود: مرحى ، مرحى ، مرحى ،

(يَعبُر الجنود خشبة المسرح ليلتحقوا ببويي)

كريستوف:(يعود إلى الواقع. يساعده الوصيف على النهوض)

أفريقيا، ساعديني على العودة إليك ، احمليني ،كابن قديم لك ، بين يديك ولتجرديني من ثيابي، ولتغسليني ، خلصيني من كل هذه الثياب، خلصيني مثل ما يخلصنا الفجر حين يأتي من أحلام الليل ، خلصيني من نبلائي، من نبالتي، من صولجاني، من تاجي، واغسليني، آه، اغسليني من أصباغهم، من لثمهم ، من مملكتي، والباقي سأتكفل به بمفردي.

(وهو يتحدث، يمسك في يده المسدس الصغير المعلق إلى عنقه في طرف سلسلة صغيرة)

المشهد الثامن

(يدخل هيكونان مرتديا ثياب وقبعة المراسم، وهو اللباس التقليدي الذي يُحتفَى به بالبارون ـ سامدي، إله الموت عند الهايتيين .)

هيكونان: يا لهذا الشراب. أعتقد جازما أنني قد تناولت منه قدرا زائدا. إنه بول النمر الحقيقي. (يتنحنح ثم يغني)

معذرة سيداتي، سادتي ، عن هذا التأخر القليل. تعلمون أنني ذاك الذي يأتي دائما في ساعة متأخرة ، ثم ، هناك ارتداء كل هذا اللبس المقدس: ثيابي، وقبعتي، وقد كدت أنساها وأنسى معها "لسيناتي" المضاعفة..وهذا الشراب .. أقصد نظاراتي. على أية حال، لقد وصلنا في الوقت المناسب لدقيقة الصمت، وهذا هو المهم. أقول دقيقة الصمت والحق .

انتبهوا جميعكم . في الوقت الذي يعلق فيه الجنود على

قبعاتهم أغصانا كثة الأوراق، ويتنافس فيه أصحاب لقب بارون ودوق في تقليب ستراتهم، وفي الوقت الذي يجسد فيه أستاذ الرقص ، بين خرائب الرقص وحطام الجوقة الموسيقية، الحضارةَ المُهانة ، ويعلن لكل رياح التاريخ أن لا جدوى من فعل أي شيء مع الزنوج ، وفي الوقت الذي ...

(يجمد في مكانه ، محتفظا بقبعته في يده ، حين يصل إلى سمعه دوي طلقة رصاص قادم من غرفة الملك، يروح صداها يتردد مبتعدا شيئا فشيئا)

شكرا ..لقد مات الملك .

يا بارون سامدي ،

إن برنارجوست هيكونان ، في خدمتك .

(يعيد قبعته على رأسه ويخرج منشِدًا)

أوكون بادوكري ، الزنجي السياسي ، أوه ،

أين أمضي ، أين أعود ،

أوكون بودوكري ، إنني هاهنا .

(ينزل الليل على الخشبة ،وحين يطلع القمر نجد أنفسنا في أعلى مكان في القلعة.

في المكان الذي يطلق عليه اسم "الفارس")

المشهد التاسع

(يتردد الصدى من قبة إلى أخرى)

الصدى الأول: مات الملك .

الصدى الثاني : مات الملك .

الصدى الثالث: مات الملك .

(أصوات طبول بعيدة تتردد من ربوة إلى أخرى)

انطفأت النار في الدار ،

النار الكبرى في الدار ،

مات الملك .

الحمَّال الأول: يا للثقل . نستطيع القول أنه ثقيل .

الحمال الثاني: أي نعم ، إنه ملك . الملك يكون دائما ثقيلا .

الحمَّال الأول: ليس ثقيلا فحسب ، لاحظ أنه يزداد ثقلا.

الحمال الثاني: لعله يزداد أكثر فأكثر ملوكية. لابد من القول أنه كان شجرة عظيمة.

الحمال الأول: أكيد . ألم تلاحظ طوال الطريق أن جثمانه كان يجذب من هاهنا ، أما الآن فعلى العكس من ذلك . إن ثقله هو كلامه ، ولابد من فهم ذلك جيدا

الحمال الثاني: صحيح، إذا كان ثقله يزداد فهو يريد أن يتوقف . أوف ، فلنضعه.

(يضعان الجثمان)

فاستي: ليوضع واقفا داخل خليط الإسمنت والحصى ، متجها نحو الجنوب . هذا جيد. لا ، ليس مضطجعا ، بل واقفا. ليشكل طريقه هو بنفسه في صلادة الحجر وصناعة الصخر التي اخترعتها يد الإنسان . وحيث أنه وجد تمثاله بنفسه ، فليُعلّق القمرُ الأحمر في نهاية السهم شعلته الرهيبة.

السيدة كريستوف: ويكون هذا البلد قد رفض لك حتى وسادة الضفدع الطحلبية ،

ويكون بلدك قد أبى عليك تجويف الجعل الطيني ،

يا رجلا مُقهقرا للتخوم

يا رجالا ينحتون الأفلاك ،

يا ضمة قوية حارة ،

يا قلبا كبيرا مُهدَى ، صار بعدُ باردا في المدى .

خلص ذاتك من خيلائك الحجري ،

من أجل أن تفكر في عجوز صغيرة

ستظل وهي تعرج في التراب والمطر ، في النهار المثلوم ،

تلتقط سنبلة اسمك ، حتى نهاية الرحلة .

الوصيف الإفريقي :

أيها الأب ، سنضعك في "إيفي" على

ربوة النخلات الثلاث .

أيها الأب،

سنضعك في إيفي، في معيَّنات الريح الستة عشر ،

في الأصل ، ذي الوجه المزدوج ،

هنا ، حيث الصبر ونفاد الصبر ،

حيث الهزيمة والنصر ،

حيث حزمة الحراشف العاكسة للضوء ،

تتبادل أسلحتها ، ودموعها .

يا قوة الليل ، ويا مدَّ النهار ،

أنت يا شانكو ،

إنني أحييك ،

حين تمر في منتزهات السماء ،

ممتطيا كباش العاصفة الملتهبة .

فاستي (متوجها إلى الملك)، أيها الملك،
على أكتافنا حملناك عبر الجبل ، إلى أعلى مستوى .
هنا ،
لأن طريقك كان اسمه
عطش الجبل،
وها أنت من جديد ملك واقف،
مُعلّقا على الهوة لوحتك الشخصية التذكارية ،
يا نجوم، يا ذات القلب المتفتت،
يا طيور الصُّوَاح المهاجرة،
يا من وُلدتِ من محرقة "ممنون" الإثيوبي،
ارسمي له أسلحته اللازوردية
التي لا تعرف الفناء،
في العنقاء ذات الأشداق المكللة بالذهب.
(أبواق جنائزية ودوي طلقات مدفع)

انتهى



إيمي سيزير

هو أحد زعماء فلسفة الزنوجة وأحد أكبر شعراء الفرانكوفونية في العصر الحاضر. أصدر حوالي عشرة دواوين شعرية منها: " دفتر العودة إلى مسقط الرأس" و" الأسلحة المعجزة" و" أغلال" و" شمس مقطوعة العنق" كما نشر أربع مسرحيات هي على التوالي – تصمت الكلاب – موسم في الكونغو – عاصفة – مأساة الملك كريستوف وهذه هي أهم وأعظم ما كتبه سيزير الذي يقول عن بطلها:

الملك كريستوف. يجسد الزنوجة في مواجهة ثلاث مشكلات: مشكلة ميتافيزيقية تتعلق بالجنس الأسود. ومشكلة إنسانية هي مشكلة انسجام شعب في دولة فتية. ومشكلة الانتقال من حالة التبعية إلى الاستقلال والمسؤولية

هذا الكتاب

كل هذه الوقائع والأحداث نجدها مجسدة في "مأساة الملك كريستوف"، ويذهب معظم الذين بحثوا في الخلفية التاريخية للمسرحية إلى القول بأن سيزير قد حافظ على تقديم تلك الحقائق بأمانة، إلا أن الشيء الأكيد أيضا أن المؤلف لم يفعل ذلك بغرض كتابة تاريخ الجزيرة، فهذه ليست مهمته،سواء بصفته شاعرا، أو بصفته مسرحيا، وقد كان، حسب استنتاجنا، واعيا تماما بهذا، وإنما قدم بعمله الفني قراءة للتاريخ، قراءة جديدة، سمحت له بطرح أسئلة لم تكن تطرح من قبل، واستجلاء حقائق لم تكن دائما واضحة، بل سمحت له، أكثر من ذلك، باستنطاق التاريخ، ومحاكمته عند الضرورة، وتأويل ملابساته، بما يتطابق والقناعات الشخصية، وتكوين نظرة مستقبلية تستمد قوتها من حقائق الماضي القريب أو البعيد



الإيداع القانوني: 2644-2009 ردمك: 979-9961-9785-8-0